في رحاب البيان القرآني

دراسة تحليلية بلاغية

لسورة المدثر

دكتور

أحمد سعد ناجي

كلية اللغة العربية بإيتاي البارود

جامعة الأزهر

المقدمة :

الحمد لله حمداً طيباً مباركاً فيه . حمداً يوافى نعمه ويكـــافئ مزيـــده وإحسانه .أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً قيماً . فتح به أعينـــاً عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً ، وهدى به من حيرة وأخرج به من ضـــلالة ، والصلاة والسلام على أفصح العرب لساناً وأنطقهم بياناً وأصـــدقهم لهجـــة وعلى آله وصحبه أطواد العلم الراسخة ومثاقيل الحكم الراجحة.

وبعد فهذه دراسة بعنوان "فى رحاب البيان القرآنى دراســـة بلاغيـــة لسورة المدثر "ولما كانت هذه السورة متنوعة الأغراض والمقاصد آثرت أن تكون رحلتى معها لتجلية الأسرار البلاغية التى اشتملتها هذه الأغراض ليقف القارئ لها على جمال النظم القرآنى ومدى تعبيره عن هدفـــه الإعجـــازى ومقصده البيانى ، وقد جاءت هذه الدراسة فى مقدمة ، وتمهيد . أما التمهيد فكان عبارة عن مدخل خاص بهذه السورة من حيـــث تســـميتها ومكيتهـــا وصلتها بسورة المزمل ووقت نزولها والأغراض التى احتوتها . ثم تلى هذا التمهيد الدراسة البلاغية فى أربعة مباحث :

المبحث الأول: وهو خاص بالحديث عن النبى (ﷺ) والأوامر التى أمر بهـــا – عليه السلام –.

المبحث الثانى : وهو خاص بالحديث عن أحوال يوم القيامة ، وسرد قصـــة الوليد بن المغيرة ، وما أعطى من مال وجاه مع طمعه فـــى طلب الزيادة ورميه القرآن والرسول – ﷺ– بالسحر وأنـــه اكتسب هذا من أهل بابل أو غيرهم.

المبحث الثالث : وصف جهنم ، والحديث عن خزنتها وعددهم ، وأن ذكـــر العدد مجرد فتنة واختبار لتمييز الخبيث من الطيب ، وقسمه تعالى ببعض مخلوقاته لبيان كون جهـــنم إحـــدى الـــدواهى العظام.

المبحث الرابـــع : محاورة المؤمنين للمجرمين فى عرصات القيامـــة وبعـــد دخولهم الجنة ونزول الآخرين دركات سقر ، وأنهم أهل لهذا العذاب الذى يذوقونه فى جهنم لعدم التزامهم الإيمان ونفورهم من الداعى ودعوته ولا مثال لهم إلا حمير الوحش النافرة من الأسد ، وطلبهم أن يعطى كل واحد كتاباً يعلن براءتـــه مـــن ذنبه ، ثم ختم السورة ببيان أن الله سبحانه هو أهل التقـــوى وأهل المغفرة . ثم جاءت الخاتمة وهى عبارة عن تلخـــيص لما جاء فى هذه الدراسة ثم ثبت بالمراجع.

د. أحمد سعد ناجى

كليـــة اللغـــة العربيـــة

جامعة الأزهر

﴿سورة المدثر﴾

مسميات السورة

أجمعت كتب التفسير والسنة على تسميتها بسورة المدثر ، وكذلك سميت فى المصاحف الواردة ، ومنها كتب فى القيروان فى القرن الخامس الهجرى- كما ذكر ذلك العلاَّمة الطاهر ابن عاشور (١) .

مكية السورة ومدنيتها : هذه السورة مكية حكى الاتفاق على مكيتها ابن عطية والقرطبى وغيرهما (٢) ، ويرى البعض عدم الإجماع لأنهم قد استثنوا قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ (٣) فقد نزل بالمدينة رواية عن مقاتل .(٤)

وعدد آياتها ستٌ وخمسون آية فى عدَّ أهل البصرة والكوفة ، وأهل المدينة فى عدِّهم الأول الذى رجعوا عنه ، وعدَّ آياتها أهل المدينة فى عدِّهم الأخير الذى أرسوا عليه وأهل الشام خمساً وخمسين .(٥)

متى نزلت هذه السورة ؟ روى الشيخان البخارى ومسلم عن أبى سلمة ابن عبد الرحمن أن سائلاً سأل أىُّ القرآن أنزل قبل ؟ قال : "يا أيها المدثر"

فقلت : أو اقرأ ؟ فقال : سألت جابر بن عبد الله: أىُّ القرآن أنزل قبل؟ قال "يا أيها المدثر" فقلت : أو اقرأ ؟ قال جابر أحدثكم ما حدثنا رسول الله –

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩١/٢٩.

(٢) المحرر الوجيز ٣٩٢/٥ ، الجامع لأحكام القرآن ٥٦/١٩ ، تفسير القاسمى ٢٠٥/١٦، حاشية الجمل ٤٣٤/٤ ، حاشية الصاوى ٢٤٩/٤.

(٣) المدثر /٣١.

(٤) روح المعانى ١١٥/٢٩ ، زاد المسير ١٤٤/٨ ، حاشية الشهاب ٢٧٠/٨.

(٥) التحرير والتنوير ٢٩٣/٢٩ ، روح المعانى ١١٥/٢٩ ، حاشية الشهاب ٢٧٠/٨ .

ﷺ- قال : "جاورت بحراء شهراً فلما قضيت جوارى نزلت فاستبطنت بطن الوادى فنوديت فنظرت أمامى وخلفى وعن يمينى وعن شمالى فلم أر أحداً ثم نوديت فرفعت رأسى فإذا هو على العرش فى الهواء -يعنى جبريل عليه السلام – فأخذتنى رجفة شديدة فأتيت خديجة فقلت : دثّرونى فصبُّوا علىَّ ماءً فأنزل الله عز وجل – يا أيها المدثر . قم فأنذر . وربَّك فكبِّر . وثيابك فطهِّر- " (١)

تعليق : قوله إن أول ما أنزل قوله تعالى – أى قول الراوى – "يا أيها المدثر " ضعيف – والصواب : أن أول ما أنزل على الإطلاق "اقرأ باسم ربك الذى خلق " كما جاء فى حديث عائشة – رضى الله عنها – من حديث بدء الوحى الطويل : ثم أرسلنى فقال : ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾

الآيات الخمس من سورة العلق: (٢)

وما روى من حديث جابر بن عبد الله – ﷺ- الذى يحدِّث فيه عن فترة الوحى (٣) : فبينما أنا أمشى سمعت صوتاً من السماء فرفعت رأسى فإذا الملك الذى جاءنى بحراء جالساً على كرسى بين السماء والأرض "قال رسول الله -ﷺ- : فجئثت منه فرقاً – أى فزعت ورعبت – . فرجعت فقلت: زملونى زملونى فدثرونى فأنزل الله تبارك وتعالى " ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ.

---

(١) فتح البارى بشرح صحيح البخارى ٨/٥٤٥ ، ٥٤٦ ، صحيح مسلم ١/١٤٤ ، الإتقان ١/٣٢ .

(٢) فتح البارى ١/٣١،٣٠ ، صحيح مسلم ١/١٣٩وما بعدها .

(٣) يعنى احتسابه وعدم تتابعه.

قُمْ فَأَنذِرْ. وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ. وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ. وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ. ". وهى الأوثان ثم تتابع الوحى (١) .

فالقول بأن أول ما نزل ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ دليل صريح على نزول سورة العلق أولاً ، وهو الصواب الذى عليه جمهور السلف والخلف ، ودليل كذلك على أنها ثانية النزول لنزولها قبل أن تفرض الصلاة كما ذكر ذلك الإمام الترمذى (٢) .

والصلاة إنما فرضت بعد فترة الوحى سواء كانت خمساً أو أقل ، وسواء كانت واجبة كما هو ظاهر قولهم : فرضت أم كانت مفروضة بمعنى مشروعة وفترة الوحى مختلف فى مدتها اختلافاً كثيراً فقيل كانت سنتين ونصفاً ، وقيل : أربعين يوماً ، وقيل : خمسة عشر يوماً ، والأصح أنها كانت أربعين يوماً فيظهر أن المدثِّر نزلت فى السنة الأولى من البعثة وأن الصلاة فرضت عقب ذلك (٣) .

ويرى الإمام السيوطى تأييداً لذلك أن قصة المجاورة بحراء متأخرة عن قصة حراء التى نزلت فيها سورة اقرأ ، وأن الأولية مخصوصة بما بعد فترة الوحى لا أولية مطلقة (٤).

صلة سورة المدثِّر بسورة المزّمل :

ترتبط سورة المدثِّر بسورة المزّمل ارتباطاً وثيقاً وتتصل بها للأمور التالية :

---

(١) فتح البارى ٥٤٦/٨ ، ٥٤٧ ، صحيح مسلم ١٤٣/١ .

(٢) عارضة الأحوذى بشرح الترمذى ٢٢٤/١٢ ك تفسير القرآن .

(٣) التحرية والتنوير ٢٧٢/٢٩ ،٢٧٣.

(٤) الإتقان ٣٢/١.

أولاً : أنها متواخية فى السورة قبلها بالافتتاح بنداء النبى محمد – ﷺ .

ثانياً : أن مصدر كلتيهما نازل فى قصة واحدة وهى قصة – بدء الوحى– .

ثالثاً : أن سورة المزمل بدئت بالأمر بقيام الليل ، وهو تكميل لنفسه – ﷺ– بعبارة خاصة ، وهذه – أعنى سورة المدثر – بدئت بالإنـــذار لغيـــره وهو تكميل لسواء (١) .

ويقول الشيخ أبو حيان : هذه السورة مكية ؟، ومناسبتها لما قبلها أن فيما قبلها ﴿ وذرنى والمكذبين﴾ (٢) وفيه أن هذه مذكرة فناسب " يَـــا أَيُّهَـــا الْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنذِرْ " وناسب ذكر يوم القيامة بعد ذكر بعض المكذبين فى قوله: "ذرنى ومن خلقت وحيداً " قُمْ فَأَنذِرْ "المعنى قم قيام تصميم وجدٌ فأنـــذر أى حذّر عذاب الله تعالى ووقائعه ، والإنذار عام لجميـــع النـــاس وبعثـــه إلـــى الخلق"(٣)

الأغراض التى تضمنتها سورة المدثر

تضمنَّت هذه السورة أغراضاً ومقاصد تهدف إليها ومن ذلك :

أولاً: تكريم النبى – ﷺ – فتذكر بعضا من جوانب شخصيته – عليه الصلاة والسلام – والأمر بإبلاغ دعوة الرسالة وإعلان وحدانيـــة الله تعـــالى ووصفه سبحانه بالألوهية المطلقة .

ثانياً: الأمر بالنهوض بأثقال الدعوة ، والقيام بمهمة البلاغ بالجدّ والنشـــاط ، والأمر بالتطهير الحسى والمعنوى ، وترك عبادة الأصنام .

---

(١) روح المعانى ١١٥/٢٩، تفسير المراغى ٢٤٥/٢٩.

(٢) المزمل /١١ .

(٣) البحر المحيط ٣٦٩/٨.

ثالثاً : الإكثار من الصدقات ، والأمر بالتحلى بصفة الصبر ، وإنذار المشركين بهول البعث وتهديد المجرمين بيوم القيامة وهو يوم عصيب شديد لا راحة لهؤلاء فيه لما يرون فيه من الأهوال التى يشيب منها الولدان ، والرد على هؤلاء فى استخفافهم بها وبقلة عدد الحفظة من الملائكة وأنهم قادرون على الإطاحة بهم .

رابعاً: تهديد من تصدَّى للطَّعن فى القرآن الكريم وزعمهم أنه من قول البشر مع كفر هؤلاء الطَّاعنين نعمة الله عليهم . فطعنوا فى ذلك مع علمهم بكونه حقاً لا مراء فيه ، وتأييس هؤلاء من الخلاص من العذاب .

خامساً:الحديث عن الشقِّى الفاجر الوليد بن المغيرة الذى سمع القرآن ، وعرف أنه كلام الله تعالى إلا أن كبره وصلفه صرفه عن ذلك زعماً منه بأن ما جاء به محمد - ﷺ - ضرب من السحر ، وباب من التمويه والتخييل الباطل.

سادساً: القسم بالقمر الذى هو آيه كونية دالَّة على قدرته سبحانه وتعالى ، والصبح حين يسفر ، وجواب هذا القسم أن جهنم أمُّ المصائب والدَّواهى وإحدى البلايا العظام التى تنتظر العصاة والمذنبين والمتكبِّرين .

سابعاً: حكاية الحوار الذى يقع بين المؤمنين والمجرمين عن سبب دخولهم جهنم واصطلائهم بجحيمها ، ومقابلة حال المجرمين بحال المؤمنين المهتدين الذين هم أهل الصلاة والزكاة والمصدقون بيوم الجزاء والحساب .

ثامناً: ختم السورة ببيان سبب إعراض المشركين عن الإيمان بأنهم لا يخافون الآخرة ، وأن ذلك ما هو إلا تذكير لهم ، وأن الله أهل لأن يتقى ، وأن تطلب منه المغفرة ، فهل أهل لأن يغفر (١) .

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩٣/٢٩ ، صفوة التفاسير ٤٧١/٢٩ ، ٤٧٢ بتصرف.

المبحث الأول

الحديث عن رسول الله

صلى الله علية وسلم

" أعوذ بالله من الشيطان الرجيم "

تفسيرا هذا القول : قال تعالى : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(١).

وقال : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾ (٢) .وقال : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٣) .

يقول العلاَّمة ابن كثير : فهذه ثلاث آيات ليس لهن رابعة فى معناها وهو أن الله تعالى يأمر بمصاحبة العدو الإنسى والإحسان إليه ليرده عنه صبعه الطيب الأصل إلى الموالاة والمصافاة بالاستعاذة به من العدو الشيطانى لا محالة إذ لا يقبل مصانعة ولا إحساناً ولا يبتغى غير هلاك ابن آدم لشدة العداوة بينه وبين أبيه آدم (٤) .

والاستعاذة : هى الالتجاء إلى الله تعالى والالتصاق بجنابه من شر كل ذى شر ، والعياذة تكون لدفع الشر ، واللياذ يكون لطلب جلب الخير .

كما قال أبو الطيب المتنبى (٥) :

يا مَنْ ألوذُ به فيما أوملـّه ** ومَنْ أعوذُ به ممّن أحاذره

لا يجبر الناس عظماً أنت كاسره ** ولا يهيضون عظماً أنت جابره

---

(١) الأعراف / ١٩٩، ٢٠٠.

(٢) المؤمنون / ٩٧،٩٨.

(٣) فصلت / ٣٦.

(٤) تفسير ابن كثير ١٢/١، ١٣ .

(٥) ديوانه ١ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ش اليازجى ، ويهيضون يكسرون ط دار صادر بيروت .

ويقولون عاذ فلان بفلان إذا التجأ إلى غيره وتعلق به (١)

والمراد بـ "أعوذ بالله " أستجير بجناب الله ، وإضافة العياذ إلى الله إضافة حقيقية إذ لا يستطيع دفع الشيطان عن الإنسان ولا يقدر عليه إلا الله تعالى (٢) وتقديم الجار والمجرور فى "بالله" على قوله "من الشيطان الرجيم" لإفادة القصر والاختصاص أى أعوذ به لا بغيره .

و "الشيطان" مشتق من شطن فلان إذا بعد ، والشيطان بعيد بطبعه عن طباع البشر وبعيد بفسقه عن كل خير . يقول النابغة الذبيانى (٣) .

نأت بسعاد عنك نوى شطون ** فباتت والفؤاد بها رهين

وقال سيبويه : العرب تقول تشيطن فلان إذا فعل فعل الشياطين هذا إذا كانت النون أصلية ، وإن كانت زائدة فهو من شاط يشيط أى احترق غضباً فالشيطان مخلوق من النار (٤) .

و "الرجيم" أى المرجوم فهو فعيل بمعنى مفعول ، وهو مأخوذ من الرجم أى الرمى ، واستعير هنا للطَّرد لأن الشيطان الرجيم هو المطرود عن الخيرات وعن منازل الملأ الأعلى (٥) .

<u>والمراد بالقول أجمع</u> : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . أستجير بجناب الله من الشيطان الرجيم أن يضرَّنى فى دينى أو دنياى أو يصرفنى عن فعل ما أمرت به ، أو يحثنى على فعل ما نهيت عنه.

---

(١) المفردات ٣٥٢/٣ ط شركة الإعلانات الشرقية سنة ١٩٩١ م .

(٢) النظم القرآنى فى سورة المعارج : ٤، ٥ د/ أحمد ناجى .

(٣) ديوانه / ٢٦٢ ط الشركة التونسية تونس سنة ١٩٨٦ م .

(٤) المفردات ٢٦١/٢ .

(٥) المفردات ١٩٠/٢.

متى تقع الاستعاذة أو متى تكون ؟ : اختلف فى وقوع الاستعاذة هل هى قبل القراءة أو بعدها على أقوال فى ذلك ؟ نذكر منها :

أولاً : اتفق أكثر العلماء على أن وقت قراءة الاستعاذة قبل قراءة الفاتحة ، ودليلهم أن الله تعالى أمر بتقديم الاستعاذة قبل القراءة لقوله تعالى : ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ﴾ (١) أى إذا أردت القراءة ، ولما رواه جبير بن مطعم أن النبى - ﷺ - حين افتتح الصلاة قال : "الله أكبر كبيراً ثلاث مرات ، والحمد لله كثيراً ثلاث مرات ، وسبحان الله بكرة وأصيلاً ثلاث مرات ، ثم قال : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه"(٢) .

ثانياً : عند النخعى وداوود الأصفهانى وإحدى الروايتين عن ابن سيرين أن وقت الاستعاذة بعد الفاتحة ، ودليلهم أيضاً . قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ ﴾ الآية ، فقد دلت الآية على أن قراءة القرآن شرط .

وذكر الاستعاذة جزاء ، والجزاء متأخر عن الشرط . فوجب أن تكون الاستعاذة متأخرة عن قراءة القرآن ، ثم قالوا : وهذا موافق لما فى العقل، لأن من قرأ القرآن فقد استوجب الثواب العظيم ، فلو دخله العجب فى آداء تلك الطاعة سقط ذلك الثواب ، ولذا أمر بالاستعاذة من الشيطان لئلا يحمله الشيطان بعد قراءة القرآن على عمل يحبط ثواب تلك الطاعة ، وقالوا :لا يجوز أن يقال : إن المراد من قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ إذا أردت قراءة القرآن فاستعذ لأنه يقال : ترك الظاهر فى موضع

---

(١) النحل / ٩٨.

(٢) مسند الإمام أحمد ٤٠٤/١ ط دار صادر بيروت .

الدليل لا يوجب تركه في سائر المواضع لغير دليل ، وهو من باب المجاز المفرد بأن يطلق الفعل ويراد إرادته كما قال الزركشي (١) .

ثالثاً: قيل بجواز قراءة الاستعاذة قبل القراءة بمقتضى الخبر ، وبعدها بمقتضى القرآن ، وجمعاً بين الدليلين بقدر الإمكان (٢) .

البسملة : "بسم الله الرحمن الرحيم"

تفسير هذا القول : أي أبدأ بتسمية الله تعالى ذكره قبل كل شئ طالباً منه العون فإنه هو الربُّ المعبود المقصود في جميع الأمور وسعت رحمته كل شئ زاد فضله وعمَّ إحسانه الخلائق بأسرها .

اللغة : الاسم . ما يعرف به ذات الشئ وأصله سمو بدلالة قولهم أسماء وسمى ، وأصله من السمو وهو الذي به رفع ذكر المسمى فيعرف به (٣) .

هذا رأي البصريين ، ويرى الكوفيون أنه مشتقٌ من السمة وهي العلامة ، وذلك لأن الاسم علامة على مسماه ، والأصل وسم ، حذفت الواو وعوض عنها الهمزة (٤) ، وإنما جعل الاسم تنويها ودلالة على المعنى لأن المعنى تحت الاسم.

و "الله" الأصل فيه "إلاه" من أله إذا عبد على فعال بمعنى مفعول ، وهو مصدر بمعنى مألوه : أي معبود ، كقولهم : خلق الله بمعنى مخلوق الله، وقيل من "ألهت" أي تحيرت ، فَسُمِّي سبحانه " إلهاً " لتحيِّر العقول في كنه

---

(١) البرهان في علوم القرآن ٢/٢٩٤ .

(٢) التفسير الكبير ١/٦٦ وما بعدها بتصرف .

(٣)المفردات في غريب القرآن مادة "سما" / ٢٤٤ .

(٤) البيان في غريب إعراب القرآن لابن الأنباري ١/٣٢ ، الصاحبي لابن فارس ٩٩/١٠٠، بدائع الفوائد لابن القيم ١/١٦ ، وما بعدها ، المفردات مادة "سما".

ذاته وصفاته ، ثم أدخلت عليه الألف واللام ، وحذفت الهمزة ، وألقيت حركتها على اللام الأولى ، فاجتمع حرفان متحركان من جنس واحد ، فاسكنت اللام ، وأدغمت فى الثانية ، وألزم التفخيم (١) .

"وقيل أصله" "ولاه" من الوله ، لأنه يوله إليه فى الحوائج ، فأبدلوا من الواو المكسورة همزة ، كقولهم فى وشاح إشاح ، وفى وسادة أسادة ،ثم أدخلوا عليه الألف واللام ، وحذفوا الهمزة ، وأدغموا ، وفخموا ، وقيل هو من "لا هت العروس " : إذا احتجبت ، فهو سبحانه سُمِّى إلهاً لأنه احتجب من جهة الكيفية عن الأوهام (٢) .

" وقيل : أصله "لاه" والألف فيه منقلبة عن ياء كقولهم : لهى أبوك . يريدون لله أبوك ، فأخرت اللام إلى موضع العين لكثرة الاستعمال ، واللام من "الله" ها هنا مرققة لمكان الكسرة قبلها ، فإن العرب تفخمها إذا كان قبلها ضمه أو فتحة وترققها إذا كان قبلها كسرة (٣) .

<u>وذكر ابن الأنبارى</u> : أن النحويين قد اختلفوا فى موضع الجارّ والمجرور "بسم الله" على وجهين : فذهب البصريون إلى أنه فى موضع رفع، لأنه خبر مبتدأ محذوف ، وتقديره ابتدائى بسم الله ، أى : كائن باسم الله، ولا يجوز أن يكون متعلقاً بالمصدر ، لئلا يبقى المبتدأ بلا خبر ، وذهب الكوفيون إلى أنه فى موضع نصب بفعل مقدر ، وتقديره : ابتدأت بسم الله ، وحذفت الألف من "بسم الله" تخفيفاً لكثرة الاستعمال ، ولا تحذف إلا معها(٤).

---

(١) البيان فى غريب إعراب القرآن ١/٣٢ ، ٣٣ .

(٢) السابق نفسه .

(٣) البيان ١/٣٣.

(٤) البيان ١/٣٢،٣١ ، البحر المحيط ١/١٦ .

وقال ابن القيم (١) ومن المجاز إطلاق الاسم على المسمى ، ومن جعل الاسم هو المسمى فى قوله "بسم الله الرحمن الرحيم" كان التقدير فيه اقرأ بالله أى بمعونته وبتوفيقه ، ومن جعله من التسمية كان التقدير أتبرّك بذكر اسم الله وبهذا يردُّ على من قدَّر ابتدائى أو بدأت باسم الله إذ لا وجه للتبريك على بعض الفعل دون سائره ولا لنسبة ابتداء الفعل إلى التوفيق دون سائره لآن الحاجة داعية إلى التبرُّك والتوفيق فى جميع الفعل دون انتهائه وابتدائه .

و "الرحمن" فعلان من رحم كندمان وغضبان من ندم وغضب ، ولا يطلق "الرحمن" إلا على الله تعالى من حيث إن معناه لا يصحُّ إلا له إذ هو الذى وسع كل شئ رحمة ، والمراد أنه المنعم بجلائل النعم .

يقول الشيخ أبو حيان : " والرحمن صفة لله عند الجماعة وذهب الأعلم وغيره إلى أنه بدل وزعم أن الرحمن علم وإن كان مشتقاً من الرحمة لكنه ليس بمنزلة الرحيم ولا الراحم ، قال ويدلُّ على علميته وروده غير تابع لاسم قبله قال تعالى : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ (٢) وإذا ثبتت العلمية امتنع النعت فتعين البدل (٣) ثم يقول : " قال أبو زيد السهيلى البدل فيه عندى ممتنع وكذلك عطف البيان لأن الاسم الأول لا يفتقر إلى تبيين لأنه أعرف الأعلام كلها وأبينها ألا تراهم ﴿ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ ﴾ (٤) ولم يقولوا وما الله ؟ فهو وصف يراد به الثناء وإن كان يجرى مجرى الأعلام (٥) .

---

(١) الفوائد المشوق /١٤ .

(٢) طه /١٥.

(٣) البحر المحيط ١٦/١.

(٤) الفرقان /٦٠ .

(٥) البحر المحيط ١٦/١ ، بدائع الفوائد٢٣/١ ، ٢٤.

و "الرحيم" على زنة فعيل أى المنعم بدقائق النعم ، و "الرحيم " يطلق على غير "الله" أيضاً ، و "الرحيم" هو الذى كثرت رحمته ، وفى "الـــرحمن" من المبالغة ما ليس فى "الرحيم" ، ولذا قيل : رحمان الدنيا والآخرة ورحـــيم الدنيا ، ويقولون إن الزيادة فى المبنى لزيادة المعنى .

يقول الشيخ أبو حيان : " وقيل معناها مختلف فالرحمن أكثر مبالغة ، وكان القياس الترقى كما تقول عالم نحرير وشجاع باسل لكن أردف الرحمن الذى يتناول جلائل النعم وأصولها بالرحيم ليكون كالتتمة والرديف ليتنـــاول مادقَّ منها ولطف (١) ثم يقول أيضاً :وقيل الرحيم مبالغة والذى يظهـــر أن جهة المبالغة مختلفة فلذلك جمع بينهما فلا يكون من باب التوكيـــد فمبالغـــة فعلان مثل غضبان وسكران من حيث الامتلاء والغلبة ، ومبالغة فعيل مـــن حيث التكرار والوقوع بمحال الرحمة ولـــذلك لا يتعـــدى فعـــلان ويتعـــدى فعيل"(٢).

رأى العلامة الزمخشرى فى وصف الله تعالى بالرحمة : يقول رحمه الله : " فإن قلت : ما معنى وصف الله تعالى بالرحمة ، ومعنهـــا العطـــف ، والحنو ، ومنها الرحم لانعطافها على ما فيها ؟ قلت : هو مجاز عن إنعامـــه على عباده ، لأن الملك إذا عطف على رعيته ورقَّ لهم أصـــابهم بمعروفـــه وإنعامه(٣) .

تعليق العلامة ابن المنير على ما ذكره الإمام الزمخشرى : يقـــول – رحمه الله : قوله ومعناها العطف والحنو – أراد الميل النفسانى أى الشـــفقة

---

(١) البحر المحيط ١٧/١ ، الكشاف ٤١/١ ، ٤٣ ، حاشية السيد ، الإنصاف عليه نفسه .

(٢) البحر المحيط ١٧/١ .

(٣) الكشاف ٤٤/١ ، ٤٥.

والرقة وهى من الكيفيات التابعة للمزاج ، والله تعالى منزه عنها فهو مجـــاز مرسل لأن الرحمة والرقة سبب للإنعام ، والإنعام مسبب عنهما (١)

<u>السر في تقديم أبلغ الوصفين على الآخر:</u>

يرى الزمخشرى ومن لفَّ لِفَّهُ : أن تلخيص الجواب عـــن ذلـــك : أن الأبلغ إذا كان أخصَّ مما دونه ومشتملاً على مفهومه تعين هنـــاك طريقـــة الترقى إذ لو قدم الأبلغ كان ذكر الآخر عارياً عن الفائدة نحو-عالم نحرير- فإن النحرير يشتمل على مفهوم العالم وزيادة ، أما إذا لم يكن الأبلغ مشتملاً على مفهوم الأدنى كـــ "الرحمن الرحيم " إذا أريد بـــالأول جلائـــل الـــنعم ، وبالثانى دقائقها جاز سلوك كل واحد من طريقى التتميم والترقى نظراً إلـــى مقتضى الحال ، ولما كان الملتفت إليه بالقصـــد الأول فـــى مقـــام العظمـــة والكبرياء جلائل النعم وعظائمها دون لطائفها ودقائقها قُدِّم "الرحمن" وأردف بـــ " الرحيم " فكان كالتتمة تنبيهاً على أن الكل منه ، وأن عنايتـــه شـــاملة لذوات الوجود كيلا يتوهم أن محقرات الأمور لا تليق بذاته فيحتشم عنه من سؤالها، وقيل : " الرحمن " ناسب اسمه العلم من جهة الاختصاص والدلالـــة على زيادة المعنى فكان تقديمه أولى ، وقيل : تأخير "الرحيم" للترقى فإنه أبلغ من "الرحيم " للترقى فإنه من "الرحمن " فإن فعيلاً للأمور الغريزية كشريف وكريم ، وفعلان للأمور العارضة كسكران وغضبان ، وأبطل ذلك بأنه من باب فعل بالضم لا من صيغة فعيل (٢) .

---

(١) الإنصاف على الكشاف ١/٤٤ ، ٤٥ ، البحر المحيط ١/١٧ .

(٢) الكشاف وحواشيه ١/٤٥، ٤٦ ، وروح المعانى ١/٦١ وما بعدها .

معنى الباء فى "بسم الله" : قيل : زائدة ، ومعناها الإلصاق ،وكسرت لوجهين : أحدهما : لتكون حركتها من جنس عملها ، والثانى : للتفرقة بينها وبين ما لا يلتزم الجر فيه كالكاف (١)

ويرى الزمخشرى ومن تبع مذهبه : أن الباء للاستعانة كما فى كتبت بالقلم ، وأن موضعها النصب أى بدأت (٢)

وقدم الجار والمجرور ، بسم على عامله المقدَّر لإرادة التخصيص ، وحذف العامل من "بسم الله" لأن الحذف أبلغ لأن المتكلم بهذه الكلمة كأنه يدَّعى الاستغناء بالمشاهدة عن النطق بالفعل فلا حاجة إلى النطق (٣) .

ويسمى هذا القول أجمع "بسم الله الرحمن الرحيم"

البسملة : فيقال : بسمل الرجل إذا كتب بسم الله وأكثر من قوله بسم الله (٤) . وقد تضمَّنت البسملة نوعين من البلاغة : الحذف وهو مايتعلق به الباء فى "بسم" والحذف قيل لتخفيف اللفظ ، وذلك أنه موطن ينبغى أن لا يقدم فيه سوى ذكر الله تعالى فلو ذكر الفعل وهو لا يستغنى عن فاعله لم يكن ذكر الله مقدماً وكان فى حذفه مشاكلة اللفظ للمعنى ، وحذف الألف فى "بسم الله " وفى "الرحمن" فى الخط لكثرة الاستعمال ، والنوع الثانى : التكرار فى الوصف ويكون إما لتعظيم الموصوف أو للتأكيد ليتقرر فى النفس(٥) .

---

(١) البيان فى غريب إعراب القرآن ٣١/١ .

(٢) الكشاف وحواشيه ٣١/١ وما بعدها ، البحر الحيط١٦/١ ، روح المعانى ٥٠/١ ، أبو السعود ٩/١، ١٠.

(٣) بدائع الفوائد ٢٥/١.

(٤) المزهر فى علوم اللغة وأنواعها للسيوطى ٨٣/١.

(٥) البحر المحيط ١٧/١ ، بدائع الفوائد ٢٥/١.

هل البسملة آيه من القرآن؟

اختلف العلماء فى عدّ البسملة آية من القران على ثلاثة أقوال :

الأول : أنها ليست بأيه ، ولا من الفاتحة ولا من غيرها ، وهو قول الإمـــام مالك والمشهور من مذهب الحنفية ، وإنما هى آية مستقلة أنزلت لبيان رؤوس السور والفصل بينها.

الثانى : أنها آية من الفاتحة ومن كل سورة غير التوبة ، وهو مذهب جمهور الشافعية ، وعليه قول عبد الله بن المبارك .

الثالث: أنها آية من الفاتحة فقط دون غيرها ، وهو منسوب للإمام أحمد بـــن حنبل وبعض الشافعية (١) .

سرُّ عدم ورود البسملة أول سورة براءة :

اختلف فى السبب فى سقوط البسملة أول براءة ، فقيل : كان من شان العرب فى الجاهلية إذا كان بينهم وبين قوم عهد وأرادوا نقضه كتبـــوا لهـــم كتاباً ، ولم يكتبوا فيه البسملة ، فلما نزلت "براءة" بنقض العهد الـــذى كـــان للكفار ، قرأها عليهم على ولم يبسمل على ما جرت به عادتهم (٢) .

روى الحاكم عن ابن عباس – رضى الله عنهما – قال : قلت لعثمـــان ابن عفان – ﷺ – ما حملكم على أن عمد تم إلى الأنفال وهى من المثـــانى وإلى براءة وهى من المئين فقرنتم بينهما ولم تكتبوا بسم الله الرحمن الرحيم، ووضعتموها فى السبع الطوال فما حملكم على ذلك فقال عثمان كان رســـول

---

(١) الكشاف ٢٤/١، ٢٥ ، الجامع لأحكام القرآن١/١٢٩ ، البرهان فى علـــوم القـــرآن ٤٦٠/١ .

(٢) البرهان فى علوم القرآن ٢٦٢/١، ٢٦٣ .

-ﷺ - مما يأتى عليه الزمان وهو ينزل عليه من السور ذوات العـــدد قـــال وكان إذا نزل عليه الشئ دعا بعض من يكتب له فيقول ضعوا هذه الســـورة التى فيها كذا وكذا وكانت الأنفال من أوائل ما نزلت بالمدينة وكانت بـــراءة من أخر القرآن وكانت قصتها شبيهة بقصتها فَظُنَّت أنها منها فقبض رســـول الله – صلى الله عليه وآله وسلم- ولم يبيِّن لنا أنها منها فلم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم (١)صحيح الإسناد.

وروى أيضاً عن ابن عباس – رضى الله عنهما – قال سألت على بن أبى طالب – ﷺ – لم لم تكتب فى براءة بسم الله الرحمن الرحيم قـــال لأن بسم الله الرحمن الرحيم أمان وبراءة نزلت بالسيف ليس فيها أمان (٢)

<u>وقال الزركشى</u> : "وعن مالك : أن أولها لمَّا سقط سقطت البسملة ، وقد قيل : إنها كانت تعدل البقرة لطولها ، وقيل : لأنه لما كتبوا المصاحف فـــى زمن عثمان اختلفوا : هل هما سورتان ، أو الأنفال سورة وبـــراءة ســـورة تركت البسملة بينهما ؟ قال القشيرى : والصحيح أن البسملة لم تكن فيهـــا ، لأن جبريل – عليه السلام – ما نزل بها فيها (٣) .

<u>فضل البسملة</u> : روى ابن أبى حاتم – رحمه الله – عن ابن عباس – رضى الله عنهما – أن عثمان بن عفان – ﷺ – قال سألت رسول الله – ﷺ – عن – بسم الله الرحمن الرحيم – فقال : " هو اسم من أسماء الله وما بينه وبين اسم الأكبر إلا كما بين سواد العينين وبياضهما من القـــرب " ، وكـــان المشركون يستفتحون أمورهم بأسماء آلهتهم فيقولون باســـم الـــلات وباســـم

---

(١) المستدرك ٢/٣٣٠ ، والتلخيص للذهبى عليه . تفسير سورة التوبة .
(٢) المستدرك ٢/٣٣٠.
(٣) البرهان ١/٢٦٣.

العزى . فأمر المسلم أن يستفتح باسم الله وفى الحديث : " كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه بحمد الله فهو أقطع (١) أى منزوع البركة ، وقد استقر عمل الأئمة المصنفين وغيرهم على افتتاح كتب العلم النافعة بالبسملة وكذا معظم الرسائل.

قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ. قُمْ فَأَنذِرْ. وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ. وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ. وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ. وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ. وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ. فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ. فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ. فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ. عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ (٢) .

قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾

أسرار النظم وبلاغياته : "يا أيها" "يا" حرف نداء وهو موضوع لنداء البعيد حقيقه أو حكماً ، وقد ينادى بها القريب توكيداً (٣)

فينادى بها القريب لنكتة . منها إظهار الحرص فى وقوعه على إقبال المدعوّ ، ومنها كون الخطاب المتلو معتنى به ، ومنها قصد تعظيم شأن المدعوّ ، ومنها قصد انحطاطه (٤)

ويرى ابن هشام أنها : "مشتركة بين القريب والبعيد ، وقيل بينهما وبين المتوسط وهى أكثر أحرف النداء استعمالاً ولهذا لايقدَّر عند الحذف سواها" (٥) .

---

(١) فتح البارى بشرح صحيح البخارى لابن حجر ١٣/١ .

(٢) المدثر /١-١٠.

(٣) مغنى اللبيب ٤١/٢ ، الإتقان ١٠٦/٢.

(٤) الإتقان ١٠٦/٢ ، والبلاغة المختارة للسيوطى /١٩١ ت . د / السيد الجميلى .

(٥) مغنى اللبيب ٤١/٢.

ويرى العلاَّمة الزمخشرى : "أن النداء فى القرآن تكرر بلفظ – يا أيها دون غيره ، لأن فيه أوجهاً من التأكيد ، وأسباباً من المبالغة ، ومنها فى "يا" من التأكيد والتنبيه وما فى "ها" من التنبيه ، وما فى التدُّرج من الإبهام فـــى "أى " إلى التوضيح ، والمقام يناسب المبالغة والتأكيد لأن ما نادى الله عباده من أوامره ونواهيه وعظاته وزواجره ووعده ووعيده ومن اقتصاص أخبار الأمم الماضية وغير ذلك مما أنطلق الله به كتابه . أمور عظـــام وخطـــوب جسام ومعان" واجب عليهم أن يتيقظوا لها ، ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها وهم غافلون ، فاقتضى الحال أن ينادوا بالآكد الأبلغ (١) .

وخلاصة القول فى ذلك : " أن – يا – أكثر أحرف النداء اســتعمالاً ، وأنه لا ينادى اسم الله – عز وجل – إلا بها ، وحين يقتضى السياق جملاً من التوكيد كإضافة عناصر لغوية ذات تأثير فى اللفت والإيقاظ – كأى – التـــى للإبهام – ها – التى للتنبيه حين ذلك لا تستعمل من الأدوات سواها فيقولون: – يا أيها – ثم إن هذه الصيغة ذات العناصر المتكاثفة فى النداء هى أكثـــر أساليب النداء وروداً فى القرآن الكريم ، وسر ذلك كما ذكروا هـــو أهميـــة المقاصد التى نادى الحقُّ خلقه ليسمعهم إياها ، وأن النداء يصـــحب الأمـــر والنهى غالباً وكأنه إعداد النفس لهما ، وأن الأكثر أن يتقدَّم عليهما (٢).

فالنداء أسلوب من أساليب الإنشاء ، وهو إنشاء نسبة النـــداء بحـــرف يقوم مقامها ليقبل المخاطب به إلى المتكلم به بقلبه ، وليس مقصوداً بذاتـــه ،

---

(١) الكشاف ٢٢٦/١ ، الإتقان ١٠٦/٢ ، ١٠٧ ، البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشـــرى ٣٧٩/ البلاغة المختارة /١٩١.

(٢) الكشاف ٢٢٦/١ ، الإتقان ١٠٦/٢ ، ١٠٧ ، البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشـــرى ٣٧٩/ البلاغة المختارة /١٩١.

وإنما ينادى ليبدأ بكلام بعده ، أو ليعلم حضوره أو غيبته أو لنسبة صفة إليه، فيكتفى بإطلاق مشتق منها – من الصفة – على المخاطب ، وعليه فنداؤه ﷺ هنا بوصفه فى حالة خاصة تلبس بها "عليه الصلاة والسلام" حين نزول هذه السورة ، وفى هذا النداء من الكرامة واللطف وإعداد النفس لتلقى الأمر بالإنذار ما فيه .

و "المدّثر" اسم فاعل من تدثَّر ، وهى " صفة وأصله – المتدثَّر – إلا أنه أبدلت التاء وإلاّ لَقَرُبَ مخرجهما ، وأدغمت الدال فى الدال ، وأدغمت التاء فى الدال ، ولم تدعم الدال فى التاء ، لأن التاء مهموسة والدال مجهورة، والمجهور أقوى من المهموس ، والمهموس أضعف ، فكان إدغام الأضعف فى الأقوى أولى من إدغام الأقوى فى الأضعف (١)

و "الدثار" كما يقول المفسرون : هو الثوب الذى يلبس فوق الثوب الذى يلبس مباشراً للجسد وهو ما يسمى شعاراً ، والشِّعار ما يلى الجسد(٢).

ووصفه "ﷺ" بذلك حقيقة ، وقيل : هو مجاز على معنى : يا أيها المدثر بالنبوة والمعارف الإلهية تشبيهاً لها بما هو دثار حقيقة من حيث إن كلً واحد منهما زينة وشرف لصاحبه ، كما قال تعالى : ﴿ لِبَاسُ التَّقْوَىَ ذَلِكَ خَيْرٌ ﴾ (٣) ، وعلى هذا ففى الآية استعارة تبعية فى اسم الفاعل شبه إحاطته "ﷺ" بلباس النبوة والكمالات النفسانية بلابس الدِّثار فى إحاطته بجسده بجامع الإحاطة والشمول فى كلٍّ ثم اشتُق من ذلك اسم الفاعل على سبيل الاستعارة

---

(١) البيان فى غريب إعراب القرآن ٤٧٣/٢ .

(٢) الفتوحات الإلهية " حاشية الجمل ٤٣٤/٤، حاشية الشهاب ٢٧٠/٨ ، محاسن التأويل للقاسمى ٢٠٦/١٦، والتحرير والتنوير ٢٩٤/٢٩.

(٣) الأعراف /٢٦.

التبعية والقرينة حالية مفهومة من سياق الكلام وقيل : شُبِّه بذلك لأنـــه كـــان مختفياً بحراء لتبعده فيه أو لإخفاء نفسه خوفاً من الناس فَشُبِّه بالغائب عـــن النظر .

قال الشهاب الخفـــاجى : والظاهر أن يراد بـــ "المدثَّر" الكنايـــة عـــن المستريح الفارغ لأنه فى أول البعثة فكأنه قيل له قد مضى زمـــن الراحـــة وجاءتك المتاعب من التكـــاليف وهدايـــة النـــاس لقولـــه :﴿ فَـــإِذَا فَرَغْـــتَ فَانصَبْ﴾(١) وهو لا ينافى إرادة الحقيقة (٢) .

وعن سر النداء فى قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَـــا الْمُـــدَّثِّرُ﴾ بقـــول الإمـــام القرطبى: "قوله تعالى - يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ - ملاطفة فى الخطاب من الكريم إلى الحبيب إذ ناداه بحاله ، وعُبِّر عنه بصفته ،ولم يقل يا محمـــد ويـــا فـــلان ، ليستشعر اللين والملاطفة من ربه (٣) .

قوله تعالى :﴿ قُمْ فَأَنذِرْ﴾

النظم البلاغى : القيام المأمور به "هنا" ليس مستعملاً فى حقيقتـــه لأن النبى "ﷺ" لم يكن حين أوحى إليه بهذا نائماً ولا مضطجعاً ولا هو مأمور بأن ينهض على قدميه وإنما هو مستعمل فى الأمر بالمبادرة والإقبـــال بالإنـــذار مجازاً أى أن الأمر خرج فيه عن حقيقته إلى المعنى المجازى لما ذكرنا ، أو أن القيام هنا كناية عن النشاط والجدّ وقوة العزيمة كناية عن الصفة ، وقيل : فخوِّف قومك فليس بك ما تخافه من الشيطان إنما أنت نبـــيٌّ فأنـــذر النـــاس وادعهم إلى التوحيد ، والله تعالى لا يوحى إلى رسوله إلا بالبراهين النيـــرة

---

(١) الشرح /٧.
(٢) حاشية الشهاب ٨/٢٧١ ، روح المعانى ٢٩/١١٦.
(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٩/٥٨ .

والآيات البينة على أن ما يوحى إليه إنما هو من الله تعالى فلا يحتـــاج إلـــى شئ سواها ولا يفزع ولا يفرق ، وقيل : معناه يا أيها الطالب صرف الأذى بالدثار اطلبه بالإنذار وخوِّف قومك بالنار وإن لم يؤمنوا (١) والأبلغ أن يكون مجازاً أو كناية – كما ذكرنا – عن الجدِّ في الأمور والقيام بما أرســل بــه وترك الهوينا فيه فكأنه قيل له لا تتم عما أمرتك به كما تقول العرب فلان لا ينام في أمره إذا وصفوه بالجدِّ وعدم الانكمــاش وصــدق العزيمــة كــأنهم يحظرون النوم على ذى الحاجة حتى يبلغ حاجته .

يقول الشيخ الطاهر ابن عاشور : " وشاع هذا الاستعمال فــى فعــل القيام حتى صار معنى الشروع في العمل من معانى مــادة القيــام مســاوياً للحقيقة ، وجاء بهذا المعنى في كثير من كلامهم ، وعدَّ ابن مالك في التسهيل فعل قام من أفعال الشروع (٢) . فاستعمال فعل القيام في معنى الشروع قــد يكون كناية عن لازم القيام من العزم والهمِّ كما في الآية ، وقد يراد المعنــى الصريح مع المعنى الكنائى ، فإذا اتصلت بفعل القيام الذى هو بهذا المعنــى الاستعمال جملة حصل من مجموعها معنى الشروع في الفعل بجد (٣) .

والفاء في قوله تعالى : " فَأَنذِرْ "للتعقيب ونقصد به تعقيب إفادة التحفُّز والشروع بالأمر بإيقاع الإنذار ، ففعل " قُمْ " منزَّل منزلة اللازم وتفريــع " فَأَنذِرْ " عليه يبيِّن المراد من الأمر بالقيام ، والمعنى على ذلــك : يــا أيهــا المدثِّر من الرُّعب لرؤية ملك الوحى لا تخف ، وأقبل على الإنذار ، وكــون قوله " فَأَنذِرْ" منزَّلاً منزلة اللازم " حيث لم يقصد تعلُّقه بالمفعول ولم يــذكر

---

(١) مجمع البيان للطبرسى ١٠٥/٢٩ ، تفسير السمرقندى المسمَّى بحر العلوم ٤٢/٣.
(٢) التسهيل /٥٩ ت الشيخ محمد كامل بركات سنة ١٣٨٧ هـــ – سنة ١٩٦٧م.
(٣) التحرير والتنوير ٢٩٤/٢٩ ، ٢٩٥ بتصرف .

لفظاً ولا تقديراً للتعميم والاختصار أى فأنذر عشيرتك الأقربين العـــذاب أو أنذر البشر كافة من غير تخصيص أحد (١) .

فمفعول "أنذر" محذوف لإفادة العموم ، أى أنذر الناس كلهـــم وهـــم يومئذ جميع الناس ما عدا خديجة "رضى الله عنها " فإنها آمنت فهى جـــديرة بالبشارة ، وقُدِّم الإنذار على ما سواه من محامد الخصال وعظيم الفعـــال ، لأنه كما يقال إن التخلية مقدَّمة على التحلية ، ودرء المفاسد مقدَّم على جلب المصالح ، ولأن غالب أحوال الناس ، وعامة أمرهم يومئذ محتاجـــة إلـــى الإنذار والتحذير .

والإنذار هو "إعلام بتخويف ، فهو أخصُّ من مطلق الإعلام ، وهـــو متعدٍّ لمفعولين المنذر باسم المفعول والمنذر به ، ولم يذكر هنا واحد منهمـــا أما المنذر فقد بينت آيات أخر أنه قد يكون للكافرين ، كما فى قولـــه تعـــالى ﴿وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا﴾ (٢) تخويفاً لهم ، وقد يكون للمؤمنين لأنهم المنتفعـــون به؟، كما فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَـــعَ الـــذِّكْرَ وَخَشِـــيَ الـــرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾ (٣) وقد يكون للجميع أى لعامة الناس كما فى قوله تعالى : ﴿أَكَـــانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ﴾(٤) ، وأما المنذر به فهو ما يكون يوم القيامة ، وقد قدَّر الأمرين هنا ابن جريـــر الطبرى بقوله : فأنذر عذاب الله قومك الذين أشركوا بالله وعبدوا غيـــره (٥) .فالإنذار إخبار فيه تخويف.

---

(١) حاشية الشيخ زادة على البيضاوى ٥٦٩/٤.

(٢) مريم /٩٧.

(٣) يس /١١.

(٤) يونس /٢.

(٥) أضواء البيان للشنقيطى ٦١٧/٨ ، جامع البيان ٩٠/٢٩.

قال الإمام الفخر : قوله تعالى : ".قُمْ فَأَنذِرْ " فى قوله " قُمْ "وجهان : أحدهما : قم من مضجعك ، والثانى : قم قيام عزم وتصميم ، وفى قولـــه : "فأنذر" وجهان : أحدهما : حذر قومك من عذاب الله إن لم يؤمنوا ، وقال ابن عباس : قم نذيراً للبشر ، احتج القائلون بالقول الأول بقوله تعالى : ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ﴾ (١) .

واحتجَّ القائلون بالقول الثانى بقوله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَـلْنَاكَ إِلا كَافَّـةً لِّلنَّاسِ ﴾ (٢) =وههنا قول ثالث ، وهو أن المراد : فاشتغل بفعـل الإنـذار . كأنه تعالى يقول له تهيأ لهذه الحرفة ، فإنه فرق بين أن يقال تعلَّم صـنعة المناظرة وبين أن يقال : ناظر زيداً (٣) .

واستعمال الإنذار دون التبشير فقيل " "فأنذر" ولم يقل : وبشِّر . لأنـه كان فى ابتداء النبوة والإنذار هو الغالب إذ ذاك أو هـو اكتفـاء (٤) . لأن الإنذار يلزمه التبشير وفى هذا الأمر بعد ذلك النداء إشارة عند بعض السادة إلى المقام الجلوة بعد الخلوة (٥) .

---

(١) إبراهيم /٤٤.
(٢) سبأ/٢٨.
(٣) التفسير الكبير "مفاتيح الغيب "١٩١/٣٠.
(٤) الاكتفاء هو : أن يقتضى المقام ذكر شيئين بينهما تلازم وارتباط فيكتفى بأحدهما عن الآخر ويخص بالارتباط العطفى غالباً . البرهان ١١٨/٣، الإتقان ٧٩/٢ ، البلاغة المختارة /٩٥ .
(٥) روح المعانى ١١٦/٢٩.

قوله : تعالى ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ .

النظم البلاغى : قوله : "وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ " معطوف على مـــا ســـبق و " وَرَبَّكَ " مفعول به مقدَّم والفاء رابطة لشرط مقدَّر يقتضيه السياق كأنه قيل : وأيا ما كان فلا تدع تكبيره (١)

ومعنى "وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ " عظِّم ربَّك ، وخصَّه بالتمجيد والتقديس ، وأفرده بالعظمة والكبرياء ، فليس هناك من هو أكبر منـــه تعـــالى ، وتخصيصـــه بالتكبير أى وصفه بالكبرياء عقداً أى اعتقاداً بالقلب ، وقولاً باللسان . "والفاء فيه وفيما يأتى بَعْدُ لإفادة معنى الشرط ، أو للدلالة على أن المقصـــود الأول من الأمر بالقيام أن يكبِّر ربَّه عن الشرك والشبيه ، فإن أول ما يجب معرفة الصانع وأول ما يجب بعد العلم بوجوده تنزيهه والقوم كانوا مقرين به (٢)

والسرُّ فى تقديم المفعول "ربَّك" على عامله فكبِّر" لإفادة الاختصاص ، أى لا تكبِّر غيره ، وهو أسلوب قصر طريقه تقديم ما حقه التأخير من بـــاب قصر الإفراد وهو أن " المخاطب يعتقد الشركة بين اثنين أو أكثر فى حكـــم واحد ، فيقتصر هذا الحكم على فرد واحد دون غيره " (٣) والمراد هنا : كبِّر ربَّك وحده دون غيره من الأصنام ، وتعظيمه تعالى وتكبيره مجاز من باب الاستعارة بتشبيه الشئ المعظم بشئ كبير فى نوعه بجامع الفضل على غيره فى صفات مثله ، وهذا يشمل تنزيهه عن النقائض فيشمل توحيـــده بالإلهيـــة وتنزيهه عن الولد ، ويشمل وصفه بصفات الكمال كلها ، أو أن التكبير كناية

---

(١) إعراب القرآن وبيانه لمحي الدين الدرويش ١٠/٢٧٥.

(٢) تفسير البيضاوى ٥/٣٩٥ ، حاشية الشهاب ٨/٢٧١ ، حاشية الشيخ زاده ٤/٥٦٩ .

(٣) البلاغة فنونها وأفنانها "علم المعانى" /٣٦٥ د/ فضل عباس .

عن التنزيه عن الشريك فالأمر بالتكبير نهى عما ذكـــر ، والنهـــى بحســـب الظاهر للنبى – ﷺ – والمقصود نهى من عداه بطريق التعريض .

وذكرت هذه الجملة "وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ " بعد جملة الأمر بالإنذار ومقدمـــة أيضاً على سائر الجمل المذكورة بعد إشارة إلى مزيد الاهتمام بأمر التكبيـــر وإيماء إلى أن المقصود الأول من الأمر بالقيام أن يكبِّر – ﷺ – ربَّه – عز وجل – وينزِّهه عن الشرك والشريك ، وتنبيهـــاً لـــه – ﷺ – علـــى عـــدم الاكتراث بأحد من الخلق ، ولا أن يرهب سوى الله ، فإن كلَّ كبير مقهـــور تحت عظمته تعالى وكبريائه فلا يعظم فى عينيك غيره ويصغر فى قلبك كل ما سواه بمشاهدة كبريائه .

<u>قال الشيخ الطاهر ابن عاشور</u> : " وأحسب أن فى ذكر التكبير إيمـــاءً إلى شرع الصلاة التى أولها التكبير وخاصة اقترانه بقوله – وثيابك فطهِّر – فإنه إيماء إلى شرع الطهارة ، فلعلَّ ذلك إعداد لشرع الصلاة (١) .

<u>وهذه الآيـــة</u> : "وربَّك فكبِّر " اختلفت مسميات العلماء لها فمنهم مـــن جعلها من قبيل ما يُسمَّى بـــ مايقرأ من الجهتين لنوع منه هو المستوى أى: أن يقرأ طرداً وعكساً من الجهتين (٢).

فالكلمتان مكونتان من الراء والباء والكاف ، ومنهم من جعلها من باب القلب وهو " أن يكون الكلام بحيث لو عكسته وبدأت بحرفه الأخيـــر إلـــى الأول كان الحاصل بعينه هو هذا الكلام ويجرى فـــى النثـــر والـــنظم (٣) ،

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩٦/٢٩ .

(٢) مقدمة تفسير ابن النقيب /٤٩٥ ، الفوائد المشوق /٢٣٨.

(٣) الإيضاح ١١٣/٦ ت د . خفاجى ، نهاية الإيجـــاز /٦٤ ، ٦٥ ، البرهـــان ٢٩٣/٣، التبيان فى علم البيان /٤٩١.

ومنهم من جعلها من قبيل المقلوب المستوى وما لا يستحيل بالانعكاس . وهو " أن تقرأ الكلمة من آخرها إلى أولها كما تقرأ من أولها إلى آخرها (١) .

وقد دندن الفخر – رحمه الله – حول هذه الآية : فكان من ذلك قوله : " واعلم أنه ما أمرك بهذا الإنذار إلا لحكمة بالغة ، ومهمات عظيمة لا يجوز لك الإخلال بها ، فقوله – وربك– كالتأكيد فى تقرير قوله : " قم فأنذر " وعندى وجه آخر – هنا – وهو أنه لما أمره بالإنذار فكأن سائلاً سأل وقال : بماذا ينذر ؟ فقال : أن يكبِّر ربَّه عن الشركاء والأضداد والأنداد ومشابهة الممكنات والمحدثات ، وهذا تنبيه على أن الدعوة إلى معرفة الله ومعرفة تنزيهه مقدمة على سائر أنواع الدعوات (٢) .

قوله تعالى : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ .

النظم البلاغى : قوله ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ جملة معطوفة على أخواتها موصولة بها لا تفاقها جميعاً فى الإنشائية إذ هى من أساليب الأمر التى أمر بها رسول الله – ﷺ – فالمراد من الأمر هنا الحثُّ والنصح بعدم ترك تطهير الثياب ، وهذه الثياب المذكورة فى الآية لها إطلاقُ صريحُ وهو ما يلبسه اللابس ، وإطلاقُ كنائىُّ فيكنى بالثياب عن ذات صاحبها ، وعلى هذا جاء قول عنترة بن شداد العبسى : (٣) .

فشككتُ بالرُّمح الأصمِّ ثيابه * * ليس الكريم على القنا بمحرَّم

---

(١) الإتقان ١١٩/٢ ، البلاغة المختارة / ٣١١ ، جواهر البلاغة /٣٣٤ .

(٢) التفسير الكبير ١٩٢/٣٠ .

(٣) ديوانه /٣٣٦ ، شرح القصائد العشر للتبريزى /٢٣٩.

فالمراد من البيت الكناية عن طعنه بالرمح ، وقيل : هو من قبيل المجاز المرسل لعلاقة المجاورة التى هى تسمية الشئ باسم مجاوره ، لأن لفظ الثياب مستعمل فى القلب ، والقرينة الدالة على هذا المجاز : أن طعن الشجاع للأعداء لا يكون للثياب لأن شكّها لا يميت ، وإنما يكون للشخص وفى قلبه ، ويجوز أن تكون العلاقة المحلية وهى تسمية الشئ باسم محله لأن الثياب محل للابسها (١)

قال الشيخ الطاهر ابن عاشور : " وللتطهير إطلاقٌ حقيقيٌّ وهو التنظيف وإزالة النجاسات ، وإطلاقٌ مجازيٌّ وهو التزكية قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (٢) والمعنيان صالحان فى الآية فتحمل عليهما معاً فتحصل أربعة معان لأنه مأمور بالطهارة الحقيقية لثيابه إبطالاً لما كان عليه أهل الجاهلية من عدم الاكتراث بذلك ، وقد وردت أحاديث فى ذلك يقوّى بعضها بعضاً وأقواها ما رواه الترمذى :

" إن الله نظيف يحبُّ النظافة " وقال : هو غريب (٣) ، والطهارة لجسده بالأولى ، ومناسبة التطهير بهذا المعنى لأن يعطف على "وربك فكبِّر "لأنه لما أُمِرَ بالصلاة أُمِرَ بالتطهير لها لأن الطهارة مشروعة للصلاة(٤).

---

(١) نظرات فى البيان /٢٥٠ د/ عبد الرحمن الكردى .

(٢) الأحزاب /٣٣ .

(٣) عارضة الأحوذى بشرح الترمذى ١٠/٢٤٠ ك الأدب رقم ٢٨٩٤ من حديث سعيد بن المسيب .

(٤) التحرير والتنوير ٢٩/٢٩٧ .

ثم يقول – رحمه الله – : "وليس فى القرآن ذكر طهارة الثوب إلا فى هذه الآية فى أحد محاملها وهو مأمور بتزكية نفسه ، والمعنى المركَّب من الكنائىِّ والمجازىِّ هو الأعلق بإضافة النبوءة إليه ، وفى كلام العرب : فلان نقىُّ لثياب ، وقال غيلان بن سلمة الثقفى (١) .

وإنى بحمد الله لا ثوب فاجر * * لبست ولا من غدرة أتقنَّع

وأنشدوا قول أبى كبشة ، وينسب إلى امرئ القيس (٢)

ثباتُ بنى عوف طهارى نقية * وأوجههم بيض المسافر غُرَّان (٣)

وقيل المراد : طهر نفسك من الصفات المذمومة كالعجب والكبر والرياء ونحو ذلك ، مأخوذ من قولهم فلان طاهر الثياب والذيل إذا أرادوا وصفه بالنقاء من أدناس الأخلاق ، وقيل المراد بالثياب الأهل . أى طهرهم عن الخطايا بالموعظة والتأديب ، والعرب تسمى الأهل ثوباً ولباساً وإزاراً قال تعالى : ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ (٤) .

---

(١) البيت فى الجامع لأحكام القرآن ٥٩/١٩ ، تفسير الخازن ١٧٤/٦ . ولا يوجد فى الحماسة ولا فى ديوان الهذليين .

(٢) ديوان امرئ القيس /٨٣ ت محمد أبو الفضل ط دار المعارف ط٤ سنة ١٣٧٧ هـ ١٩٥٨م .

(٣) التحرير والتنوير ٢٩٧/٢٩ .

(٤) البقرة ١٨٧ ، ويراجع حاشية الشهاب ٢٧١/٨ ، ٢٧٢ ، روح المعانى ١١٨/٢٩ ، مجمع البيان ١٠٦/٢٩ ، حاشية الصاوى ٢٥٠/٤ .

وفي لسان العرب : يقال : فلان طاهر الثياب إذا وصفوه بطهارة النفس والبراءة من العيب ، وفلان دنس الثياب إذا كان خبيث الفعل والمذهب خبيث العرض (١) .

وقال الألوسي ان : " تطهير الثياب كناية عن تطهير النفس عما تذمُّ به من الأفعال وتهذيبها عما يستهجن من الأحوال لأن من لا يرضى بنجاسة ما يماسُّه كيف يرضى بنجاسة نفسه يقال فلان طاهر الثياب نقيُّ الذيل والأردان إذا وصف بالنقاء من المعايب ومدانس الأخلاق .

ويقال فلان دنس الثياب وكذا دسم الثياب للغادر ولمن قبح فعله (٢)

وقيل : " إن التطهير هنا أمر له " عليه الصلاة والسلام " بالتنظيف وقت الاستنجاء لأن العرب ما كانوا ينظِّفون أجسامهم . ففي الآية رد على المشركين إذ كانوا لا يصونون ثيابهم عن النجاسات فأمره الله تعالى أن يخالفهم في ذلك ، بل كان كثير منهم يبول على عقبه.

ومن العلماء من يرى أن استعمال التطهير هنا مراد به تقصير الثياب لما روى عن أبي الحسن علي " رضي الله عنهما " أمير المؤمنين قوله : قصِّر من ثيابك فإنه أبقى وأنقى وأتقى ، وفي الحديث : أُزْرَةُ المؤمن إلى أنصاف ساقيه لا جناح عليه فيما بينه وبين الكعبين ما أسفل من ذلك ففي النار ، ما أسفل من ذلك ففي النار ، ولا ينظر الله يوم القيامة إلى من جرَّ إزاره بطراً (٣) ، وهو على هذا من قبيل المجاز للزومه له فَعُبِّر بالملزوم

---

(١) اللسان مادة ثوب .

(٢) روح المعاني ١١٧/٢٩ .

(٣) الموطأ /٧٩٤ ك الجامع ح رقم ٥٧ من حديث أبي سعيدٍ الخدري ، سنن أبي داود ٥٩/٤ ك اللباس ح رقم ٤٠٩٣ .

عن اللازم إذ تقصير الثياب مطلوب لأنه كثيراً ما يُفض تطويلها إلـــى جـــرّ ذيولها على القاذورات ، ومن العلماء من يرى جواز الجمع بـــين الحقيقـــة والمجاز حيث حمل التطهير على حقيقته ومجازه أعنى التقصير ، ومنهم من لا يرى جواز ذلك ، وعليه يراد بالتطهير إزالة ما يســـتقذر مطلقـــا ســـواء النجس أو غيره من المستقذر الظاهر ومنه الأوساخ فيكون ذلك أمراً له – ﷺ – بتنظيف ثيابه وإزالة ما يكون فيها من وسخ وغيره من كل يستقذر فإنـــه منفر لا يليق بمقام البعثة ، ويستلزم هذا بالأولى تنظيف البدن من ذلك ، ولذا كان – ﷺ – أنظف الناس ثوباً وبدناً ، وهذا يستلزم أيضاً الأمر بالتنزُّه عـــن المنفِّر القولىّ والفعلىّ كالفحش والفظاظة والغلظة إلى غير ذلك .(١) .

والفاء فى قوله : " فطهِّر " داخلة على توُهم شرط أو تقديره فيـــه أى مهما يكن من شئ فلا تدع تطهير ثيابك ، وذلك أن حقَّ الفـــاء الســـببية أن يكون ما بعدها مسبباً لازماً قبلها فلما لم يذكر قبلها شئ يترتب عليه ما بعدها علم أن ما بعدها جواب شرط محذوف.

وأن المعنى : وما يكن فطهر ثيابك أى أى شئ يكن فلا تدع تطهيـــر ثيابك وهذا آكد فى إفادة الاختصاص بالنسبة إلى مجرد تقديم المفعـــول مـــن جهة التعلُّق بالشرط العامِّ الذى هو وقوع شئ ما (٢) .

---

(١) ينظر : فى هذا كله روح المعانى ١١٨/٢٩ ، حاشية الجمل ٤٣٥/٤ ، ٤٣٦ ، حاشية الشهاب ٢٧١/٨ ، تفسير الخازن ١٧٢/٦ ، ١٧٣ ، غرائب القـــرآن للنيســـابورى ٣٢٦٢/٤ ، ٣٢٦٣ ، حاشية الصاوى ٢٥٠/٤ .

(٢) تفسير البيضاوى ٣٩٥/٥ ، حاشية الشيخ زاده عليـــه ٥٦٩/٤ ، حاشـــية الشـــهاب ٢٧١/٨ ، البحر المحيط ٣٧٠/٨ ، ٣٧١ .

وتقديم المفعول "ثيابك" على عامله "فطهِّر" للاهتمام بـــه فـــى الأمـــر بالتطهير ، وللعناية به لمناسبته لمقام النبوة .

قوله تعالى : ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾

النظم البلاغى : قوله : "وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ " جملة معطوفة على ما سبق موصولة به من عطف جمل الأمر على بعضها للتشريك فى الحكم الإعرابى وللاتفاق فى الخبر والإنشاء.

و "وَالرُّجْزَ" فى قراءة عاصم برواية حفص عنه بضم الراء هنا وفى غيرها من سور القرآن بكسر الراء ، وقرأ الباقون وعاصم فى رواية أبـــى بكر بالكسر ، وقرأ يعقوب الحضرمُّ بالضمِّ ، ثم قـــال القـــرُّاء همـــا لغتـــان والمعنى واحد (١) وفى تفسير "الرُّجْزَ "أقوال للعلماء – رحمهم الله – .

قال أبو العالية والربيع والكسائى " الرُّجْزَ " بالكسر العذاب والنجاســـة والمعصية وبالضم الوثن ، وقال مجاهد وعكرمة : يعنى الأوثان ، دليله قوله تعالى : ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ﴾ قاله ابن عباس وابن زيد ، وعن ابن عباس أيضاً : والمآثم فاهجر ، أى فاترك ، وعن إبـــراهيم النخعـــى قـــال : الرُّجْزَ " الإثم ، وقال قتادة : الرجز إساف ونائلة صنمان كانا عند البيت (٢)

وعلى ما ذكره الكسائى من أن المراد بـــ "الرجز" العذاب سُمِّى به كيد الشيطان رجزاً لأنه سبب للعذاب على سبيل المجاز المرسل بتســـمية الشـــئ باسم سببه ،كما سميت الأصنام رجزاً لأنها سبب العذاب ، وعلى هذا القـــول تكون هذه الآية دالَّة على وجوب الاحتراز عن كل المعاصى ، ويجعل كذلك

---

(١) التفسير الكبير ١٩٤/٣٠ ، القراءات العشر المتواترة بهامش القـــرآن الكـــريم /٥٧٥ الشيخ محمد كريم راجح ط ٢ .

(٢) البحر المحيط ٣٧١/٨ ، الجامع لأحكام القرآن ٦٢/١٩ ، فتح القدير ٣٩٨/٥ .

"الرجز" على ما يشمل الأوثان وغيرها من أكل الميتـــة والـــدم ، إذ أصـــل العذاب الاضطراب فى الأعمال والمعتقدات ، ومن هنا أقيم سببه المؤدى إليه من المآثم فكأنه قيل أهجر المآثم والمعاصى المؤدية إلـــى العـــذاب ، أو أن الكلام هنا على حذف مضاف أى أسباب الرجز ، أو ذا الرجز فاهجر أى ذا العذاب ، أو أن الكلام من باب المجاز المرسل لعلاقة المجاوزة بأن سُمّى ما يؤدى إلى العذاب عذاباً تسمية للشئ باسم ما يجاوزه ويتصل بـــه ، أو هـــو مجازٌ عقلىٌ من باب التجوُّز فى النسبة لأن "الرجز" اسم للقبيح المســـتقذر ، وهو معنى الرجس وهو سبب مؤد إلى العذاب ، فجاء قوله تعالى "والرجـــز فاهجر" كلاما جامعاً فى مكارم الأخلاق كأنه قيل له اهجر الجفاء والسفه وكل شئ قبيح ، ولا تتخلق بأخلاق هؤلاء المشركين المستعملين للرجز (١)

وتقديم المفعول "الرجز" على عاملة "اهجر" للاهتمام فى مهيع الأمـــر بتركه ، ودخول الفاء على الفعل "فاهجر" لتوهم شرط مقدر أى مهما يكن من شئ فاهجر الرجز .

والهجر المأمور به هنا مراد به " ترك المخالطة وعدم الاقتراب مـــن الشئ وجاء الهجر كناية – هنا – عن ترك التلبس بالأحوال الخاصة بـــأنواع الرجز لكل نوع بما يناسبه فى عرف الناس(٢) والأمر بهجر الرجز يســـتلزم أن لا يعبد الأصنام وأن ينفى عنها الإلهية.

---

(١) الكشاف ١٨١/٤ ، التفسير الكبير ١٩٤/٣٠ ، روح المعانى ١١٩/٢٩ .
(٢) التحرير والتنوير ٢٩٨/٢٩ .

وقال الألوسى : " ولما كان المخاطب بهذا الأمر هو النبـــى - ﷺ - وهو البرئ عن ذلك من باب إياك أعنى واسمعى يا جارة ، أو المراد الدوام والثبات على هجر ذلك (١) .

ويرى بعض العلماء أن الرجز فى الآيـــة : مجـــاز مرســـل لعلاقـــة المسببية لإطلاق اسمه على عبادة الأصنام حيث " تُجُوِّز بـــ "الرجز" وهـــو العذاب الشديد عن عبادة الأصنام لأن العذاب مسببٌ عنها (٢) .

وخلاصة القول: فى هجر "الرجز" أن المراد منه الثبات على هجـــره لأنه - ﷺ - كان بريئاً منه.

قوله تعالى : ﴿وَلا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ :

النظم البلاغى : قوله "ولا تمنن" جملة معطوفة على مـــا ســـبق مـــن الأوامر المتقدمة له - ﷺ - حيث أمر أولاً بقيامه بالإنذار والتبليـــغ للـــدعوة التى كُلِّفها ، وأمر ثانياً بتخصيص ربّه عـــزّ وجـــل بـــالتكبير ، والإجـــلال والتعظيم ، وأمر ثالثاً بهجر الرجز وعبادة الأصنام لأنها عبادة من لا يملـــك لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا يملك موتاً ولا حياة ولا نشـــوراً ، ثـــم أمـــر هنـــا بالإعطاء مع عدم المنّ والاستكثار لما يعطى .

والواو فى قوله "ولا تمنن" للعطف أى عطف هذا الأمر على سوابقه إذ كلها جمل مراد بها الأمر والحثُّ والوعظ ، و "لا" ناهيـــة جزمـــت الفعـــل المضارع "تمنن" والفعل "تستكثر" مضارع مرفوع وفاعله ضـــمير مســـتتر وجوباً تقديره - أنت - والجملة فى محل نصب على الحال إذ المعنى : ولا تعط مستكثراً رائياً لما تعطيه كثيراً أو طالباً للكثير ، وفى الآية نهـــى عـــن

---

(١) روح المعانى ١١٩/٢٩.

(٢) الفوائد المشوق / ١٩ .

الاستغزار والمراد به : أن يهب شيئاً وهو يطمع أن يتعوَّض من الموهوب له أكثر من الموهوب وهذا جائز .

قال العلاَّمة الزمخشري : " فيه – أى فى النهى – وجهان : أحدهما : أن يكون نهياً خاصاً برسول الله – ﷺ – لأن الله تعالى اختار لـه أشرف الآداب وأحسن الأخلاق ، والثانى : أن يكون نهى تنزيه لا تحريم لـه ولأمته(١) ، ولما كان الله تعالى قد اختار لرسول الله – ﷺ – أكمل الصفات، وأشرف الأخلاق فامتنع عليه أن يهب لعوض أكثر ، والسين فى الفعل " تستكثر" للوجدان لا للطلب أى لوجود طلب الكثير من وراء العطية ، والنهى عن ذلك لأنه نوع إعجاب وفيه بخل خفى .

وقد تعددت كلمة العلماء – رحمهم الله تعالى – فعن الحسن والربيع : لا تمنن بحسناتك على الله تعالى مستكثراً لها أى رائياً إياها كثيراً فتنقص عند الله عز وجل ، وعن ابن زيد : لا تمنن بما أعطاك الله تعالى من النبوة والقرآن مستكثراً به أى طالباً الأجر من الناس ، وعن مجاهد : لا تضعف عن عملك مستكثراً لطاعتك فتمن من قولهم حبل منين أى ضعيف ، وماروى عن ابن عباس – رضى الله عنهما – أنه قال أى لا تقل قد دعوتهم فلم يقبل منى عُدْ فادعهم (٢)

والمنُّ المذكور فى الآية مراد به العطاء على سبيل الاستعارة التصريحية لأن المعنى : ولا تعط مالك لأجل أن تأخذ أكثر منه ، أو " لا تعط الناس عطاءً وتستكثر لأن الكريم يستقلُّ ما يعطى وإن كان كثيراً " (٣).

---

(١) الكشاف ١٨١/٤ .

(٢) روح المعانى ١١٩/٢٩ ، الجامع لأحكام القرآن ٦٣/١٩ ، فتح القدير ٣٩٨/٥ .

(٣) التسهيل فى علوم التنزيل ١٦٠/٤ لابن جزى .

وسرُّ النهى فى الآية أن يكون العطاء خالياً عن انتظار العوض تعففاً وكمالاً قال الإمام الفخر – رحمة الله – : "ما الحكمة فى أن الله تعالى منعه من هذا العمل ؟ – الجواب – الحكمة فيه من وجوه : الأول : لأجل أن تكون عطاياه لأجل الله لا لأجل طلب الدنيا ، فإنه نهى عن طلب الدنيا فى قوله : ﴿وَلا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ (١) وذلك لأن من طلب الدنيا لا بد وأن تكون الدنيا عنده عزيزة ، ومن كان كذلك لم يصلح لأداء الرسالة .

الثانى : أن من أعطى غيره القليل من الدنيا ليأخذ الكثير لا بد وأن يتواضع لذلك الغير ويتضرَّع له ، وذلك لا يليق بمنصب النبوة ، لأنه يوجب دناءة الأخذ ولهذا السبب حرمت الصدقات عليه ، وتنفير المأخوذ منه ، ولهذا قال (٢) ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ (٣) .

وقرأ الحسن وابن أبى عبلة بجزم الراء فى "تستكثر" ووجهه أنه بدل من "تمنن" أى لا تستكثر كقوله : ﴿يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ﴾ (٤) فى قراءة من جزم بدلاً من قوله : ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾ (٥) ويكون من المنِّ الذى فى قوله تعالى : ﴿لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى﴾ (٦) لأن من شأن المان أن تستكثر ما يعطى أن يراه كثيراً ويعتد به (٧) .

---

(١) طه /١٣١ .
(٢) الطور /٤٠ .
(٣) التفسير الكبير ١٩٥/٣٠ .
(٤) الفرقان /٦٩ .
(٥) الفرقان /٦٨.
(٦) البقرة /٢٦٤ .
(٧) البحر ٣٧٢/٨، روح المعانى ١١٩/٢٠ .

وقد وجَّه العلاَّمة الزمخشرىُ قراءة الحسن السابقة بقوله : وقرأ الحسن – تستكثر – بالسكون ، وفيه ثلاثة أوجه : الإبدال من "تمنن" كأنه قيل: ولا تمنن لا تستكثر – بدل اشتمال أو بدل كلٍّ من كلٍّ على دعوى الاتحاد على أنه من المنِّ فى قوله:﴿ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُواْ مَنًّا وَلاَ أَذًى﴾(١)لأن من شأن المان بما يعطى أن يستكثره أى يراه كثيراً ويعتد به ، وأن يشبه ثرو – أى المقطع الأخير من الفعل – بعضد فيسكَّن تخفيفاً ، وأن يعتبر حال الوقف (٢)

وقد اعترض الشيخ أبو حيان على الوجهين الأخيرين من توجيه الإمام الزمخشرى بقوله : " وهذان لا يجوز أن يحمل القرآن عليهما مع وجود ما هو راجح عليهما وهو البدل – أى الوجه الأول – (٣)

وقرأ الحسن أيضاً والأعمش "تستكثر" بنصب الراء ،فالنصب على إضمار – أن – مثل مره يحفرها أى أن يحفرها ، وكقول طرفة بن العبد البكرى : (٤)

ألا بُهذا الزاجرىُ أحضرَ الوغى ** وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدّى؟

فى رواية من نصب "أحضر" أى : أن أحضر ، ويؤيد هذه القراءة قراءة ابن مسعود : ولا تمنن أن تستكثر (٥) وللألوسى توجيه سديد لهذه القراءة فى قوله : " وقرأ ابن مسعود بإظهار – أن – فالمنُّ بمعنى الإعطاء

---

(١) البقرة /٢٦٢ .

(٢) الكشاف ١٨١/٤ ، البحر المحيط ٣٧٢/٨ ، روح المعانى ١١٩/٢٩ ، ١٢٠ .

(٣) البحر المحيط ٣٧٢/٨ .

(٤) ديوانه /٤٦ ت فوزى عطوى ط دار صعب بيروت سنة ١٩٨٠ م .

(٥) الكشاف ١٨١/٤ ،البحر المحيط ٣٧٢/٨.

والكلام على إرادة التعليل أى ولا تعط لأجل أن تستكثر أى تطلب الكثير ممن تعطيه وأيَّد به إرادة المعنى الأول فى قراءة الرفع وهو : ولا تعط مستكثراً أى طالباً للكثير ممن تعطيه (١)

ومناسبة هذه الآية "ولا تمنن تستكثر" وعطفها على الأمر بهجر الرجز: أن المنَّ فى العطية كثير من خُلُق أهل الشرك فلما أمره الله بهجر الرجز نهاه عن أخلاق أهل الرجز بها يقتضى الأمر بالصدقة والإكثار منها بطريق الكناية . فكأنه قال : وتصدَّق وأكثر من الصدقة ولا تمنن ، أى لا تعد ما أعطيته كثيراً فتمسك عن الازدياد فيه ، أو تتطرَّق إليك ندامة على ما أعطيت .

<u>ومن هنا قال العلاَّمة الطاهر ابن عاشور</u>: " وهذا من بديع التأكيد لحصول المأمور به جعلت الصدقة كالحاصلة ، أى لأنها من خلقه - ﷺ - إذ كان أجود الناس وقد عرف بذلك من قبل رسالته لأن الله هيَّأه لمكارم الأخلاق فقد قالت له خديجة - رضى الله عنها - فى حديث بدء الوحى : - إنك تحمل الَكلَّ وتكسب المعدوم (٢) - ففى هذه الآية إيماء إلى التصدُّق كما كان فيها إيماء إلى الصلاة ، ومن عادة القرآن الجمع بين الصلاة والزكاة(٣).

ولهذا كان " ﷺ" يعطى عطاء من لا يخشى الفقر ولا يخشى إقلالاً قوله تعالى : ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾.

---

(١) روح المعانى ١٢٠/٢٩ .

(٢) صحيح البخارى بدء الوحى ب كيف كان بدء الوحى ؟ ب١ حديث رقم ٣ تعليق د/مصطفى ديب البغا. ط دار القلم بيروت .

(٣) التحرير والتنوير ٢٩٨/٢٩ ، ٢٩٩.

النظم البلاغى : قوله "وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ" جملة معطوفة على مـــا ســـبق متممة لجملة الأوامر الماضية له " ﷺ " وقد ربطت الواو هذا الأمر بسوابقه لأنه لما أمر " علية الصلاة والسلام " بفضائل الأخلاق ومحاسنها تمَّم الله له هذه الأوامر بأعلاها شأناً وأشرفها قدراً وهو تحمّل المشاقّ . فجاء هذا الأمر تثبيتاً له " ﷺ " على تحمّل ما يلقاه من أذى المشركين وعلى مشاقّ الدعوة ، والصبر هو ثبات النفس وتحملها بقوة للمشاقّ والآلام نحوها .

والتقديم فى "ولربك" من تقديم متعلَّقات الفعل عليـــه للاختصـــاص أو للاهتمام به ، وما حسَّنه كونه رأس فاصلة جاء موافقاً لما تقـــدَّم ، وقولـــه : "ولربِّك" يجوز – كما قيل – فيه وجهان : أحدهما : أن تكون اللام لام العلة أى لوجه ربِّك فاصبر على أذى الكفار ، وعلى عبادة ربك ، وعن كل مـــالا يليق . فترك المصبور عليه ، والمصبور عنه للعلم بهما ، والأحســـن أن لا يقدَّر شئٌ خاصٌ بل شئٌ عامٌ ، والثانى : أن يضمَّن "اصبر" معنى اذعن .أى: اذعن لربك وسلِّم له أمرك صابراً (١) .

يقول الإمام الفخر – رحمة الله – : إنا أمرناك فى أول هذه الســـورة بأشياء ونهيناك عن شئ فاشتغل بتلك الأفعال والتروك لأجل أمر ربك ، فكأن ما قبل هذه الآية تكاليف بالأفعال والتروك ، وفى هذه الآية بيَّن مـــا لأجلـــه يجب أن يؤتى بتلك الأفعال والتروك وهو طلب رضـــا الـــربِّ ، وأن هـــذا تعريض بالمشركين كأنه قيل له : ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ ولا الأوثـــان . ﴿وَثِيَابَـــكَ فَطَهِّرْ﴾ ولا تكن كالمشركين نجس البدن والثياب "والرجز فاهجر" ولا تقربه كما تقربه الكفار "وَلا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ " كما أراد الكفار أن يعطوا الوليد قـــدراً

---

(١) الدر المصون ٦/٤١٣ .

من المال وكانوا يستكثرون ذلك القليل " ولربّك فاصبر " على هذه الطاعات لا للأغراض العاجلة من المال والجاه (١) .

وتقديم الجار والمجرور "ولربّك" من باب القصر وطريقة تقديم ما حقُّه التأخير ، وهذا التقديم متعلق الفعل عليه " تفيد ثلاثة أمـور الأول حصـول الفعل بلاشكّ . الثانى : تعلُّقه بالجار والمجرور.

الثالث : عدم تعلُّقه بغيره ، وذلك لقصره عليه أى : اصبر لربـك لا لغيره ومن هنا قُدِّم للعناية به والاهتمام بشأنه فالتقديم للتخصيص .

<u>قال العلامة الزمخشرى</u> : " ولربك فاصبر – ولوجـه الله فاسـتعمل الصبر ، وقيل : على أذى المشركين ، وقيل : على آداء الفرائض ، وعـن النخعى : على عطيتك كأنه وصله بما قبله وجعله صبراً على العطـاء مـن غير استكثار ، والوجه أن يكون أمراً بنفس الفعل وأن يتناول على العموم كل مصبور عليه ومصبور عنه ، ويراد الصبر على أذى الكفار لأنه أحـد مـا يتناوله العام (٢) .

وقد وضَّح الشيخ زادة – رحمه الله – مراد الزمخشرى . فى استعمال الصبر على مشاقِّ التكاليف وأذية المشركين بأمرين . أحدهما : أن يجعـل فاصبر " منزَّلاً منزلة اللازم بأن لا يعتبر تعلُّقه بما يصبر عليه من الطاعات وما يصبر عنه من المعاصى ، والثانى : أن يعتبر تعلُّقه بهذا المفعول العـام المتناول لكل مصبور عليه ومصبور عنه لكنه ذكره اعتماداً علـى القرينـة

---

(١) الكشاف ٤/١٨١ .

(٢) الكشاف ٤/١٨١ .

لقصد التعميم مع الاختصار كأنه قيل إذا سمعت هذه التكاليف من الأفعال والتروك فاصبر عليها لأجل أمر ربك أو لوجهه الكريم (١) .

ويُعدَّى فعل الصبر إلى اسم الذى يتحمله الصابر بحرف " على " ومن هنا يقال " صبر على الأذى ، ويتضمن معنى الخضوع للشئ الشاقّ فيعدَّى إلى اسم ما يتحمله الصابر باللام ، ومناسبة المقام ترجّح إحدى التعديتين ، فلا يقال : اصبر على الله ، ويقال : اصبر على حكم الله ، أو لحكم الله ، فيجوز أن تكون اللام فى قوله : " لرَبّك" لتعديه فعل الصبر على تقدير مضاف ، أى اصبر لأمره وتكاليف وحيه كما قال : ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ (٢) ، وقوله : ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ (٣) . فيناسب نداءه بـ "يأيها المدثّر" لأنه تدثر من شدة وقع رؤية الملك، وترك ذكر المضاف لتذهب النفس إلى كل ما هو من شأن المضاف إليه مما يتعلق بالمخاطب (٤)

والتعبير عن الله تعالى بصفة الربوبية فى قوله : "لربك" إيماء إلى أن هذا الصبر برٌّ بالمولى وطاعة له تعالى ، وفعل الأمر فاصبر" يفيد الحثَّ والتنبيه على أن طاعة الله مما يستحقُّ أن يتحمل معه صاحبه ما يلقاه لأن الجزاء عنده تعالى مكفول مضاعف .

<u>قال الألوسى</u> : " وعن ابن عباس – رضى الله عنهما – الصبر فى القرآن على ثلاثة أوجه : صبر على آداء الفرائض وله ثلثمائة درجة ،

---

(١) حاشية الشيخ زادة على البيضاوى ٥٧٠/٤ ، وحاشية الشهاب ٢٧٣/٨ .
(٢) الطور /٤٨.
(٣) الإنسان /٢٤ .
(٤) التحرير والتنوير ٢٩٩/٢٩.

وصبر عن محارم الله تعالى وله ستمائة درجة ، وصبر على المصائب عند الصدمة الأولى وله تسعمائة درجة وذلك لشدته على النفس وعدم التمكُّن منه إلا بمزيد اليقين (١) ، وبعد فهذه ستٌ وصايا أوصى الله بها رسوله – ﷺ – في مبدأ رسالته ، وهي من جوامع القرأن أراد الله بها تزكية رسوله وجعلها قدوة لأمته.

قوله تعالى : ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ. فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ. عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ .

النظم البلاغي : الفاء في قوله : "فإذا" للسببية أي تسبُّب هذا الوعيد عن الأمر بالإنذار في قوله : "قم فأنذر" أي فأنذر المنذرين وأنذرهم وقت النقَّر في الناقور وما يقع يومئذ بالذين أنذروا فأعرضوا عن التذكرة ، لأن الفاء يجب أن تكون مرتبطة بالكلام الذي قبلها ، ويجوز أن يكون قوله : " فإذا نقر " " معطوفاً علىقوله "فاصبر" واقع موقع العلة كأنه قال : اصبر على أذاهم فبين أيديهم يوم عسير يلقون فيه مغبة أذاهم وتلقى فيه عاقبة صبرك ، وجاء معطوفاً على هذا بناءً على أنه أمر بالصبر على أذى المشركين ، وقوله : "إِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ" من باب المجاز المرسل لعلاقة المسببية حيث أطلق المسبب وهو النقر بمعنى التصويب ، وأريد السبب وهو القرع الذي هو سبب النقر " ومنه منقار الطائر لأنه يقرع به ولهذه السببية تجوز به عنه ، وشاع ذلك وأريد به النفخ لأنه نوع منه (٢) وبين الفعل "نقر" وبين الاسم "الناقور" جناس اشتقاق وهو ما يجمع فيه اللفظان في أصل الاشتقاق، وفائدته إعطاء الأسلوب بلاغة ترقى به لتصوير الحالة التي جاء

---

(١) روح المعاني ١٢٠/٢٩ .

(٢) روح المعاني ١٢٠/٢٩.

من أجلها مع مطابقته لمقتضى هذه الحال ، وهو أدعى إلى تأكيده وتثبيته فى الذهن بعد معرفته وفى الآية حذف المسند إليه وهو النافخ إسرافيل – عليه السلام – وسر حذفه توجيه المخاطب لنفس الحدث ، وذلك لأن الذى يريده القرآن أن يوجه الناس إلى هذا الحدث الجسيم دون أن يشغلوا بمن فعل هذا الفعل ، فليس هناك كبير فائدة من ذكر المسند إليه .

و "الناقور" فاعول من النقر بمعنى التصويت ، و "النَّاقور " هو الصُّور والصُّور قرن بنفخ فيه النفخة الأولى للفناء ، والثانية للإنشاء . (١) . قال الراغب : " هو – الصُّور – مثل قرن ينفخ فيه فيجعل الله سبحانه ذلك سبباً لعود الصُّوَر والأرواح إلى أجسامها . (٢) .

وفى الحديث : " عن عبد الله بن عمر – رضى الله عنهما – قال قال أعرابى يا رسول الله : ما الصُّور ؟ قال قرن ينفخ فيه (٣)، ومنه أيضاً قوله – ﷺ – : كيف أنعم وقد التقم صاحبُ القرنِ القرنَ وحنى جبهته وأصغى سمعه ينتظر أن يؤمر أن ينفخ فينفخ قال المسلمون فكيف نقول يا رسول الله قال قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل توكلنا على الله ربنا ،وربما قال سفيان على الله توكلنا(٤).

وقد " اختلف فى أن المراد بذلك الوقت يوم النفخة الأولى أو يوم النفخة الثانية ورُجِّح أنه يوم الثانية لأنه الذى يختصُّ عسره بالكافرين وأما

---

(١) فتح القدير ١٦٤/٢ .

(٢) المفردات /٢٨٩ ، ٢٩٠ مادة صور .

(٣) عارضة الأحوذى بشرح الترمذى ١٢٣/١٢ ك تفسير القرآن ب ٣٩ح رقم ٣٢٥٧ ، مسند الدرامى ٣٢٥/٢ ب فى نفخ الصور.

(٤) عارضة الأحوذى ١٢٣/١٢ ح رقم ٣٢٥٦.

وقت النفخة الأولى فحكمه الذى هو الإصعاق يعم البرَّ والفاجر وهو على المشهور مختصٌ بمن كان حيًّا عند وقوع النفخة (١)

قوله تعالى : " فذلك يومئذ يوم عسير " .

النظم البلاغى : الفاء فى قوله " فذلك " رابطة لجواب – إذا – وذلك – مبتدأ وهو إشارة إلى وقت النقر المفهوم من قوله " فإذا نقر وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد لفظاً بالمشار إليه للإيذان ببعد منزلته فى الهول والفظاعة ، و "يومئذ" بدل من الإشارة مبنىٌّ على الفتح لإضافته إلى غير متمكن وهو "إذا" والتنوين عوض عن جملة أى : يوم إذ نفخ فى الصور ، والخبر هو " يوم عسير " فكأنه قيل : فيوم النقر يوم عسير . (٢) .

والمراد بالإشارة بيان شدة هذا اليوم فهو يوم " شديد هائل يشتدُّ فيه الهول ويعسر الأمر على الكافرين ، وتعريف المسند إليه " يومئذ يوم " باسم الإشارة البعيد "ذلك" لقصد تمييز هذا اليوم أكمل تمييز لإحضاره فى ذهن السامع ، فيكون أكثر تصور له ، بحيث لا يغيب عنه شئ من أوصافه ، ولتعظيمِ شأن هذا اليوم وما يحدث فيه من أهوال جسام ، تعمُّ هؤلاء الكافرين. " ووصف اليوم بالعسير باعتبار ما يحصل فيه من العسر على الحاضرين فيه . فهو وصفٌ مجازىٌ عقلىٌ – لعلاقة الزمان – وإنما العسير ما يقع فيه من الأحداث (٣) .

---

(١) روح المعانى ١٢١/٢٩.

(٢) روح المعانى ١٢١/٢٩ ، إعراب القرآن وبيانه ٢٧٦/١٠ .

(٣) التحرير والتنوير ٣٠١/٢٩.

وقوله : " على الكافرين " جار ومجرور متعلق بقوله "عسير" وقيل : متعلق بمحذوف هو صفة لـ "عسير" أو حال من الضمير المستكن فيه ، وجوَّز أبو البقاء تعلقه بـ "يسير" أو لما دلَّ عليه (١) .

وقوله " على الكافرين " من باب القصر . قصر صفة الشدة والعسر على الموصوف وهم الكافرون ، وقد أفاد هذا القصر اختصاصهم بهذه الشدة دون غيرهم ، وهو قصرُ إضافيُّ قصر تعيين ، فهذه الشدة والعسر خاصُّ بهم لا يتعدَّاهم إلى غيرهم وهم المعنيون به دون سواهم ، فهو عسير عليهم غير هيِّن ولا يسير ، لأنهم يناقشون الحساب وتسودُّ وجوههم ، ويحشرون زرقاً ، ويفتضحون على رءوس الأشهاد .

وقوله : " غير يسير " تأكيد لمعنى "عسير" بمرادفه ، وهو من غرائب الاستعمال كما يقال:عاجلاً غير أجل . " وفائدة قوله سبحانه – غير يسير – أى سهل بعد قوله تعالى – عسير – تأكيد عسره على الكافرين فهو يمنع أن يكون عسيراً عليهم من وجه دون وجه ويشعر بتيسيره على المؤمنين كأنه قيل عسير على الكافرين غير يسير عليهم كما هو يسير على أضدادهم المؤمنين (٢) .

وقد بيَّن العلاَّمة الزمخشرى : فائدة هذا التأكيد الوارد فى قوله : "غير يسير" بقوله "فإن قلت : فما فائدة قوله – غير يسير – و – عسير – مغن عنه ؟ " قلت : لما قال :– على الكافرين – فقصر العسر عليهم قال : – غير يسير – ليؤذن بأنه لا يكون عليهم كما يكون على المؤمنين يسيراً هيناً ليجمع بين وعيد الكافرين وزيادة غيظهم وبشارة المؤمنين وتسليتهم ، ويجوز أن

---

(١) إملاء ما منَّ به الرحمن ٢/٢٧٣ .

(٢) روح المعانى ٢٩/١٢١ . حاشية الصاوى على الجلالين ٤/٢٥١ .

يراد أنه عسير لا يرجى أن يرجع يسيراً كما يرجى تيسر العسير من أمـــور الدنيا. (١)

وعلى هذا فإن الكافرين ينقطع رجاؤهم مـــن جميـــع الوجـــوه التـــى يقصدونها ، وفى هذا تعريض بأن هذا اليوم له حالة أخرى ، وهـــى اليســـر على المؤمنين ليجمع بين إغاظة الكافرين ووعيـــدهم ، وبشـــارة المـــؤمنين وسكون بالهم وراحة نفوسهم حين يرون هؤلاء فى أودية جهنم يذوقون حرَّها وسعيرها ويعانون قسوتها وزفيرها وزقومها وغسلينها .

---

(١) الكشاف ١٨١/٤ حاشية الشهاب ٢٧٣/٨ ، حاشية الشيخ زادة ٥٧١/٤ .

المبحث الثانى

الحديث عن الشقى الفاجر

الوليد بن المغيرة

قال تعالى : ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا. وَجَعَلْتُ لَـهُ مَالًـا مَّمْـدُودًا ﴾ الآيات.

النظم البلاغـى: قوله تعالى ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ ﴾ أسـلوب إنشـائى طريقة الأمر مراد به التهديد وهو جملة استئنافية مؤذنة بأن حدثاً وقع كـان سبباً فى نزول هذه الآية عقيب الآيات المشتملة على عدة أوامر لرسـول الله - ﷺ - وهنا انتقال للكلام من أمره - عليه الصلاة والسلام - بجميل الفعال وكريم الخصال بأسلوب دقيق على الحديث عن زعيم من زعماء الكـافرين ومدبر مطاعنهم فى القرآن الكريم ودعوة الرسول -ﷺ - .

ذكر المفسرون : أن الآية نزلت فى الوليد بن المغيرة . كان من أكابر قريش ، لذلك لقب الوحيد وريحانة قريش ، وقد أنعم الله عليه بنعم الدنيا فى المال والبنين ،وأغدق عليه الرزق فكان ماله كالنهر الدفاق ، وكان له بستان فى الطائف لا ينقطع ثمره صيفاً ولا شتاءاً فكفر بأنعم الله وبـدّلها كفـراً ، وقابلها بالجحود والنكران لآيات الله تعالى والافتراء على رسوله.

قال أبو عبد الله القرطبى: عن سبب نزولها فى الوليد : " وإن كـان الناس خلقوا مثل خلقه - خلق الوليد - ، وإنما خُصَّ بالـذكر لاختصاصـه بكفر النعمة وإيذاء رسول الله - ﷺ - وكان يُسمَّى الوحيد فى قومه ([1]) .

فقوله : "ذرنى" أسلوب بليغ فى التهديد والوعيد ، وتصدير الجملة بفعل الأمر "ذرنى" إيماء إلى الرسول - ﷺ - لأنه كان مهتماً ومغتماً مما ادعـاه واختلقه الوليد بن المغيرة ، فاتصاله بقوله تعالى : " وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ " يـزداد وضوحاً .

([1]) الكشاف ١٨٢/٤ ، حاشية الجمل ٤٣٧/٤ ، حاشـية الصـاوى ٤/ ٢٥١ ، وصـفوة التفاسير ٤٧٥/٢٩ .

قال الشيخ الطاهر ابن عاشور : وأياماً كلن فقد وقع الاتفاق علـــى أن هذا القول صدر عن الوليد بن المغيرة وأنه المعنى بقوله تعالى – ومن خلقت وحيداً – فإن كان قول الوليد صدر منه بعد نزول صدر هذه السورة فجملة – ذرنى ومن خلقت وحيداً – مستأنفة استئنافاً ابتدائياً ، والمناسبة ظاهرة ، وإن كان قول الوليد هو سبب نزول السورة ، وكان متصـــلاً بقولـــه – ولربـــك فاصبر – على أنه تعليل للأمر بالصبر بأن الله يتولى جزاء هذا القائل ، وما بينهما اعتراض (١) .

وجئ بالموصول وصلته فى قوله : " وَمَنْ خَلَقْـــتُ وَحِيـــدًا " لإدمـــاج تسجيل كفران الوليد النعمة فى الوعيد والتهديد .

وقوله "وحيداً" حال إما من الياء فى "ذرنى" والواو للمعيـــة والمـــراد : ذرنى وحدى معه فأنا أغنيك فى الانتقام عن كل منتقم ، أو من التـــاء فـــى "خلقت" والواو للعطف أى خلقته وحدى لم يشركنى فى خلقه أحد فأنا أهلكه لا أحتاج إلى ناصر فى إهلاكه . (٢) .

و – الوحيد – هو الفريد عن غيره فى مكان ، أو خلقته منفرداً بلا أهل ولا مال ثم أنعمت عليه ، أو هو منصوب على الذمِّ أى أذم وحيداً فقد كـــان الوليد يلقب فى قومه بالوحيد فتهكَّم الله تعالى بـــه وبلقبـــه أو صـــرفه عـــن الغرض الذى كان يؤمونه من مدحه والثناء عليه إلى جهة ذمِّه وعيبه فـــأراد سبحانه : وحيداً فى الخبث والشرِّ ، أو وحيداً عن أبيه لأنه كان دعيـــاً لـــم يعرف نسبه للمغيرة حقيقة فقد روى أنه كان دعياً فى قريش ليس من سنخهم ادعاه أبوه بعد ثمانى عشرة سنة من مولده ، وقيل : بغت أمه ولـــم يعـــرف

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠٣/٢٩ .

(٢) روح المعانى ١٢١/٢٩ ، حاشية الشهاب ٢٧٣/٨ .

حتى نزل قوله : ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ﴾ (١) والنطفة إذا خبثت خبث الناشئ منها ، روى أنه دخل على أمه وقال : إن محمداً وصفنى بعشر صفات وجدت تسعاً فيَّ فأما الزنيم فلا علم لى به ، فإن أخبرتنى بحقيقته وإلا ضربت عنقك ، فقالت : إن أباك كان عنيناً ، وخفت أن يموت فيصل مَا لَهُ إلى غير ولده فدعوت راعياً إلى نفسى ، فأنت من ذلك الراعى . (٢) .

ويرى الشيخ الصاوى : أن قوله تعالى : "ذرنى ومن خلقت وحيداً " إنما هو " خطاب للنبى - ﷺ - وفيه مزيد إجلال وتعظيم له وإشعار بأن رحمته - ﷺ - غالبة على غضبه (٣) .

ولم أر أحداً من المفسِّرين : ذكر هذا الرأى ، بل أجمعت كلمتهم على أن المراد من الأمر هنا التهديد والوعيد بأسلوب بليغ ، ومجئ الوصف بـ "وحيداً" بعد الفعل "خلقت" ليصرف هذا عما كان مراداً به فينصرف إلى ما يصلح لأن يقارن فعل "خلقت" أى أوجدته وحيداً عن المال والبنين والبسطة ، فيغير عن غرض المدح والثناء الذى كانوا يخصونه به إلى غرض الافتقار إلى الله الذى هو حال كلٍّ مخلوق (٤) .

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا﴾ .

النظم البلاغى : قوله : "وجعلت له" معطوف على قوله : "ذرنى ومن خلقت وحيداً " من عطف الخاصِّ على العامِّ ، وهذه الجملة موصولة بسابقتها "ذرنى" لاتفاق الجملتين خبراً وإنشاء ، وهما متغايرتان وبينهما جامع ، وقد

---

(١) القلم /١٣ .

(٢) تفسير النسقى /١٢٦٧ .

(٣) حاشية الصاوى٤/٢٥١.

(٤) التحرير والتنوير ٢٩/٣٠٤.

جاءت الجملة الأولى إنشائية مراداً بها الأمر ، والثانية خبرية للإخبار عن بسط المال وكثرته عند الوليد بن المغيرة ، والجعل فى الفعل جعلت" هو التصيير أى صيّرته صاحب أموال كثيرة ووسعّت عليه فى هذا حتى صار أغناهم رجلاً مالاً وولداً ، فجعل له المال الواسع المبسوط من الإبل ، والخيل والغنم ، والبساتين النضرة ، أو المال الممدود بالنماء ،، وقيل : كان له الزرع والضرع والتجارة (١) .

وتقديم الجارّ والمجرور المتعلّق بالفعل "جعل" على معمول الفعل وهو المفعول من باب القصر للاختصاص أى هذه التوسعة والبسط والمدُّ والكثرة خاصة به لا تتعدّاه إلى غيره إذ هو المخصوص بالذمّ والتهديد والوعيد ، وقُدّم المال على البنين لأن المال تكون به السطوة والغلبة وأن انطلاق القوة إنما يكون بالمال ، والممدود المبسوط الكثير فقد كان ماله ممدوداً بين مكة والطائف، وقيل : كان له بستان بالطائف لا ينقطع ثمره صيفاً ولا شتاء، وما كان له من الإبل والنعم والجنان والعبيد بين مكة والطائف وقيل : المال الممدود هو الأرض لأنها مُدَّت واتسعت ، أو هو المستغل الذى يجبى شهراً بعد شهر فهو ممدود لا ينقطع ، وفى " ممدوداً " استعارة تبعية فى المشتقات لأن الممدود اسم مفعول إذ هو بمعنى السعة . فاستعير مدُّ المال وبسطته لكثرته وسعته كمدّ الماء بين الوديان ، فقد تشعّب مال الوليد وكثر بين مكة والطائف.

قوله تعالى : ﴿وَبَنِينَ شُهُودًا﴾

النظم البلاغى : قوله : "وبنين" جملة معطوفة على سابقتها موصولة بها لا تفاقهما فى الخبرية ، فلما ذكر سبحانه أنه قد أعطاه المال ، امتنّ الله

---

(١) تفسير البيضاوى ٣٩٧/٥ .

عليه بنعمة البنين ووصفهم بكونهم " شهوداً " جمع شاهد أى حاضـــرون لا يفارقونه فهو مستأنس بهم لا يشتغل باله بمغيبهم وخوف معا طـــب الســـفر عليهم فكانوا بغنى عن طلب الرزق بتجارة أو نمارة ،وكانوا كلهم يشـــهدون معه المحافل فكانوا فخراً له ، أو تسمع شهاداتهم فيما يتحاكم فيه . قيل : كان للوليد عشرة أولاد ذكور ، وقيل: ثلاثة عشر ، وقيل : سبعة وهم الوليد بـــن الوليد وخالد وعمارة وهشام والعاص ، وقيس وعبد شمس أسلم منهم ثلاثـــة خالد وهشام والوليد .

<u>وقد ذكر جار الله</u> : أن الذين أسلموا خالد وهشام وعمـــارة . فـــذكر عمارة (١) والصواب أنه الوليد كما ذكر ابن حجر فى الإصابة : أن عمـــارة مات كافراً (٢) وتعقَّب الشهاب الخفاجى كلام الزمخشرى بالإنكار عليه عـــدَّ عمارة ممن أسلم ،وأن كثيراً من المفسرين كانوا تبعاً للزمخشرى فى ذلك .

<u>فقال الشهاب</u> : وهو غلط سبقهم إليه كثير من المحدِّثين والمفسِّرين، والصواب خالد وهشام والوليد فأما عمارة فإنه مات كافراً لأن قريشاً بعثـــوه للنجاشى فجرت له معه قصة فأصيب بعقله وهام مع الوحش وقد ثبت أنـــه ممَّن دعا النبى - ﷺ - عليهم من قريش لما وضع عقبة بن أبى معيط سلى الجزور على ظهره وهو يصلى (٣).

<u>وقد فصَّل القول فى ذلك</u> :تفصيلاً دقيقاً النيسابوريُّ ، وبـــيَّن أن مـــا ذكره الزمخشرى من كون عمارة ممن أسلم وأن الوليد ظلَّ على كفره أمـــر مردود فقال : قلت : إنه – أى الزمخشرى – أبقى الوليد بن الوليد فى حوزة

---

(١) الكشاف ١٨٢/٤ .

(٢) الإصابة فى تمييز الصحابة ١٧٣/٤ ، ١٧٣/٥ ط دار الكتب العلمية بيروت.

(٣) حاشية الشهاب ٢٧٤/٨.

الكفرة ، وهو مسلم حسن الإسلام مشهور الصحبة كما ذكره رشيد الدين الوطواط فى رسالته وصاحب سر السلف سيد الحفاظ أبو القاسم . فيه أن الوليد بن الوليد بن المغيرة وعياش بن أبى ربيعة وسلمة بن هشام (١) . ثم يقول أيضاً : " ثم قدم – أى الوليد المدينة فتوفى بها ، فكفنه رسول الله – ﷺ – فى قميصه وكانت أم سلمة تندبه بقولها :

أبكى الوليد بن الوليد بن المغيرة • • أبكى الوليد بن الوليد أخا العشيرة

والعجب من – جار الله – أنه ذكر فى سورة الزمر فى تفسير قوله : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ ﴾ (٢) أن الوليد أسلم ، وأسلم معه نفر وهاجروا (٣) ، ثم أبقاه ههنا فى بقية الكفار (٤) .

وقوله: شهوداً" نعت لـ "بنين" جمع شاهد بمعنى حاضر ، والمراد : " الحضور مع أبيهم لعدم احتياجهم للسفر فيكون كناية عن كثرة النعم والخدم، أو مع الناس فى المجامع والمحافل فهو عبارة عن رئاسة بنيه كأبيهم وهم لوجاهتهم بين الناس يشهدون المحافل أى مجامع الناس (٥)

قوله تعالى : ﴿ ومهدت له تمهيداً ﴾ .

النظم البلاغى : قوله : "ومهدت" معطوف على ما سبق من عطف العامّ على الخاصّ ، فبعد أن ذكر الله تعالى من مظاهر النعم المال والنبين

---

(١) صحيح مسلم ٤٦٦/١ ، ٤٦٧ ك المساجد ب استجاب القنوت فى الصلاة رقم ٦٧٥ من حيث أبى هريرة – ﷺ – غرائب القرآن ٣٢٦٦/٤ .

(٢) الزمر /٥٣ .

(٣) الكشاف ٤٠٣/٣ .

(٤) غرائب القرآن ٣٢٦٦/٤ .

(٥) حاشية الجمل ٤٣٧/٤ .

عاد هنا فعمَّم الخيرات الدنيوية التى أنعم بها عليه فقال تعالى : " ومهَّدت له تمهيداً " والمراد : بسطت بين يديه الدنيا بسطاً ، ويسَّرت له تكاليف الحياة ، ومظاهر الجاه والعزّ والسيادة فكان فى قريش عزيزاً منيعاً ، وسيداً مطاعاً – والمراد من الآية : بسطت له الرياسة والجاه العريض فأتممت عليه نعمتى الجاه والمال واجتماعهما هو الكمال عند أهل الدنيا – كما ذكر جميع المفسِّرين – حتى جعل الناس ذلك دعاء الخير فيما بينهم ، قائلين: أدام الله تأييدك وتمهيدك ، ولذلك كانوا يلقبونه بالوحيد وريحانة قريش لأن الريحان لأصل نبت حسن طيب الرائحة ، وتُجُوِّز به عن الرزق الطيب والولد الحسن فأما تسمية الوليد بريحانة فكناية عن كثرة غناه ونضارة حاله الرائقة فى الأعين منظراً ومخبراً (١)

والتمهيد : مصدر مهَّد بالتشديد فى الهاء ، وهو دالٌ على قوة المهد ، والمهد هو تسوية الأرض وإزالة ما يقضُّ جنب المضطجع عليها ، ومنه مهد الصبى أى فراشه ، وهو هنا استعارة تبعية لتيسير أموره ونفاذ كلمته فى قومه بحيث لا يعسر عليه مطلب ولا يستعصى عليه أمر ، فهو مستعار من مهاد الأرض وفراش الصبى لتيسير الأمور وبسطة الجاه والمال والولد، وتقديم الجارّ والمجرور على معمول الفعل المفعول المطلق "تمهيداً" للقصر والاختصاص أى مهَّدت هذا جميعاً له لا لغيره .

وجاء الفعل "مهَّدت" مؤكداً بمصدره على المفعولية المطلقة ليتوسل بتنكيره لإفادة تعظيم ذلك التمهيد ، وليس يطرد أن يكون التأكيد لرفع احتمال المجاز .

---

(١) حاشية الشهاب ٨/٢٧٤ .

قال الشيخ الطاهر ابن عاشور : ووصف فى هذه الآية بما له من النعمة والسعة لأن الآية فى سياق الامتنان عليه توطئة لتوبيخه وتهديده بسوء الحال فى الدنيا وبعذاب النار فى الآخرة ، فأما فى آية سورة القلم . فقد وصفه بما فيه من النقائص فى قوله تعالى : ﴿وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ (١) بناء على قول من قال : إن المراد به الوليد بن المغيرة -وقد علمت أنه احتمال – لأن منهم من قال إنه الأخنس بن شريق الثقفى حليف بنى زهرة ، أو الأسود بن عبد يغوث الزهرى – لأن تلك الآية فى مقام التحذير من شره وغدره . (٢)

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾

النظم البلاغى : قوله : "ثم يطمع " جملة معطوفة على ما سبق ، و"ثم" حرف عطف للترتيب مع التراخى ، وفيه استبعاد واستنكار بطمعه وحرصه وتهالكه على زيادة المال والنعمة .

قال الألوسى – رحمه الله – مبيّناً سبب هذا الاستبعاد والاستنكار بقوله :" إما لأنه فى غنى تامٍّ لا مزيد على ما أوتى سعة وكثرة ،أو لأنه مناف لما هو عليه من كفران النعم ومعاندة المنعم ،وعن الحسن وغيره أنه كان يقول – أى الوليد – : إن كان محمد صادقاً فما خلقت الجنة إلاَّ لىَّ، واستعمال "ثُمَّ" للاستبعاد كثير ، قيل ، وهو غير التفاوت الرتبى بل عدُّ الشئ بعيداً غير مناسب لما عطف عليه كما تقول تسئ إلىَّ ثم ترجو إحسانى وكان ذلك لتنزيل البعد المعنوىّ منزلة البعد الزمانىّ (٣).ومراد هذا العطف أى

---

(١) القلم /١٠-١٦.

(٢) تفسير ابن كثير ٤٠٤/٤ ، التحرير والتنوير ٣٠٥/٢٩ .

(٣) روح المعانى ١٢٢/٢٩ ، حاشية الشهاب ٢٧٤/٨ .

وأعظم من ذلك أنه يطمع فى الزيادة من تلك النعم ، وذلك بما يعــرف مــن يسر أموره ، وهذا مشعر باستبعاد حصول المطموع فيه وقد صرح به فــى قوله: "كلاً".

و – الطمع – كما يقول الشيخ الطاهر ابن عاشور هو : " طلب الشئ العظيم، جعل متعلق طمعه زيادة مما جعل الله له لأنهم لم يكونــوا يســندون الرزق إلى الأصنام ، أو لأنه طمع فى زيادة النعمة غير متذكر أنها من عند الله فيكون إسناد الزيادة إلى ضمير الجلالة إدماجاً بتذكيره بأن ما طمع فيــه هو من عند الذى كفر هو بنعمته فأشرك به غيره فى العبادة ، ولهذه النكتــة عدل عن أن يقال : يطمع فى الزيادة ، أو يطمع أن يزاد (١)

ومجئ الفعلين "يطمع" و "أزيد" مضارعين دلالة على تجدد واستمرار هاتين الخصلتين منه وتكرار ذلك منه فهو طالب منهوم لا ينقطع طلبه وشدة طمعه فى الزيادة أو الاستزادة من المال والولد والجاه .

وقد جعل الإمام الفخر الرازى : العطف بــ "ثم" للإنكار والتعجــب فيقول : " لفظ – ثم ههنا معناه التعجب كما تقول لصاحبك : أنزلتــك دارى وأطعمتك وأسقيتك ثم أنت تشتمنى . فمعنى – ثم – ههنا للإنكار والتعجب ، ثم تلك الزيادة التى كان يطمع فيها هل هى زيادة فى الدنيا أو فى الآخــرة ؟ فيه قولان : – الأول – قال الكلبى ومقاتل ثم يرجو أن أزيد فى ماله وولــده وقد كفر بى ، – الثانى – أن تلك الزيادة فى الآخرة قيل : إنه كان يقول إن كان محمد صادقاً فما خلقت الجنة إلاَّ لى (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩/٣٠٥.

(٢) التفسير الكبير ٣٠/٢٠٠.

قوله تعالى : ﴿كَلا إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيدًا﴾

النظم البلاغى : قوله "كلاَّ" ردع وزجر له لقطع رجائه وطمعه وتهالكه ، فجاء هذا الأسلوب رادعاً له ومبطلاً لطمعه فى الزيادة من النعم وقاطعاً لرجائه .

" وتأتى – كلاَّ – إبطالاً لذلك الطمع الفاسد وردعاً متضمناً نفى الزيادة .

– يقول المفسِّرون – : ولم يزل الوليد فى نقصان بعد قوله – كلاَّ – حتى افتقر ومات فقيراً فـ – كلاَّ – قطع للرجاء عما كان يطمع فيه من الزيادة فيتم الكلام ويحسن الوقف ويستأنف الكلام بعد – كلاَّ – تعليلاً لهذا الردع المتضمِّن النفى بقوله : – إنه كان لآياتنا عنيداً – كأن قائلاً قال : " لم لا يزاد ؟

فقيل : إنه عاند آيات المنعم وكفر بذلك نعمته ، والكافر لا يستحقُ المزيد (١)

وقد لمح الشيخ الطاهر ابن عاشور فى أسلوب الردع هذا ملمحاً دقيقاً فيقول : " والمقصود إبلاغ هذا إليه مع تطمين النبى – ﷺ – بأن الوليد سيقطع عنه مدد الرزق لئلا تكون نعمته فتنة لغيره من المعاندين فيغريهم حالة بأن عنادهم لا يضرهم لأنهم لا يحسبون حياة بعد هذه (٢) .

---

(١) كلاَّ ومقاماتها القرآنية نظرة بلاغية بحث منشور بمجلة كلية اللغة العربية إيتاى البارود ص ١٢٠ د/ رفعت السودانى . العدد التاسع سنة ١٤١٣ هـ ، سنة ١٩٩٣م.

(٢) التحرير والتنوير ٢٩/٣٠٥ .

ثم يقول أيضاً : " وفى هذا الإبطال والردع إيذان بأن كفران النعمة سبب لقطعها قال تعالى : ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾(١) - ، ولهذا قال الشيخ ابن عطاء الله : - من لم يشكر النعم فقد تعرَّض لزوالها ، ومن شكرها فقد قيد بعقالها (٢)

وقوله :﴿ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴾ جملة تعليلية للردع لأن معاندة آيات المنعم مع وضوحها وكفرانها مع شيوعها من موبقات النفس وموجبات الحرمان ، ويجوز أن تكون مستأنفة ويكون الوقف عند قوله تعالى "كلاَّ" وهى على هذا مستأنفة استئنافاً بيانياً لتعليل ما قبل ، ومن هنا فصلت عن آداة الردع والزجر "كلاَّ" لشبه كمال الاتصال "كأنه قيل : لم زجر عن طلب المزيد ؟ وما وجه عدم لياقته فقيل : إنه كان معانداً لآيات المنعم وهى دلائل توحيده أو الآيات القرآنية حيث قال فيها ما قال ،، والمعاندة تناسب الإزالة وتمنع من الزيادة . قال مقاتل : ما زال الوليد بعد نزول هذه الآية فى نقص من ماله وولده حتى هلك .(٣) و "العنيد " الشديد العناد وهو المخالفة للصواب وهو فعيل من عند يعند كضرب ، إذا نازع وجادل فى الحقِّ البيِّن .

قال الراغب: " والعنيد المعجب بما عنده ، والمعاند المباهى بما عنده والعنود قيل مثله ، قال : لكن بينهما فرق لأن العنيد الذى يعاند ويخالف والعنود الذى يعند عن القصد ، ويقال بعير عنود ولا يقال عنيد ، وجمع

---

(١) إبراهيم /١٧.

(٢) التحرير والتنوير ٣٠٥/١٩.

(٣) روح المعانى ١٢٢/٢٩ ، تفسير البيضاوى ٣٩٧/٥ ، حاشية الشهاب ٢٧٤/٨ ، تفسير الخازن ١٧٥/٦ ، حاشية الجمل ٤٣٨/٤.

العنيد عند ، والعنيد العادل عن الطريق فى الحكم ، وعند عن الطريق عدل عنه (١)

ولما كان الوليد بن المغيرة بهده المنزلة من العناد والكفر والجحود لما أعطاه الله ومنحه من المال والجاه والولد والمكانة إلا أنه قابل هذا المنح والعطاء والتمهيد بالجحود ، فلما كان كذلك فلا مزيد له لأنه كافر .

والكفر لا يستحقُّ المزيد ولاسيما إذا كان كفره أفحش أنواعه وهو كفر العناد والعنيد : هو الذى كان العناد خلقه وديدنه فلشدة عناده وصفه الله تعالى به ، وتقديم الظرف يدل على أن عناده كان مختصاً بآيات الله وإن كان تاركاً لله معانداً فى سائر الأمور ، وفى جمع الآيات إشارة إلى أنه كان منكراً للتوحيد والتوبة والبعث ، وغير ذلك من دلائل الدين ومعجزاته (٢) ، هذا الوليد المذكور وصفه . كان معانداً فى أمور كثيرة : منها أنه كان يعرف هذه الأشياء بقلبه وينكرها بلسانه ، وكفر العناد أفحش أنواع الكفر ، ومنها : أنه كان يعاند فى دلائل التوحيد وحجة التوبة وحجة البعث ، ومنها : أن قوله تعالى : - إنه كان لآياتنا عنيداً - يدل على أن هذه حرفته من قديم الزمان ، ومنها : أن تلك المعاندة كانت منه مختصة بآيات الله تعالى ، فتخصيصه هذا العناد بآيات الله مع كونه تاركاً للعناد فى سائر الأشياء يدل على غاية الخسران (٣) .

---

(١) المفردات مادة "عند" /٣٤٩، ٣٥٠.

(٢) الكشاف ١٨٢/٤ ، غرائب القرآن ٣٢٦٧/٤.

(٣) التفسير الكبير ٢٠١/٣٠ ، حاشية الجمل ٤٣٨/٤ ، كلا ومقاماتها القرآنية /١٢١ .

قوله تعالى : ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا﴾

النظم البلاغى : قوله : "سأرهقه" جملة معترضة بين قولـــه : " إنـــه كان لآياتنا عنيداً :وبين قوله : "إنه فكَّر وقدَّر " وفصد بهذا الاعتراض تعجيل الوعيد له مساءة له ، وتعجيل المسرة للنبى - ﷺ - والســين فــى قولــه : "سأرهقه" للاستقبال أى ما يستقبله كل يوم يمرُّ عليــه بعــد عنــاده وكفــره الشديدين لآيات الله ، والإرهاق : الإتعاب وتحميل مالا يطاق يقال : " رهقه الأمر غشيه بقهر " (١)

والمراد من هذا الفعل سأغشيه عقبة شاقة المصعد ، وهذا من قبيــل الاستعارة التمثيلية : حيث شبه حاله وما يلقاه من العذاب الشاقِّ الصعب الذى لا يطاق فقد شُبِّه حال ما يسوقه الله تعالى له من المصائب وأنواع المشــاقِّ بحال من يكلَّف الصعود فى الجبال الوعرة الشاقَّة فاستعيرت الهيئــة الدالَّــة على المشَّبه به للهيئة الدالَّة على المشَّبه على سبيل الاستعارة التمثيليــة ، أو أنه " سينقلب حاله من حال راحة وتنعُّم وتمهيد وبسطة المال والجاه إلى حالة سوأى فى الدنيا ثم إلى العذاب الأليم فى الآخرة ، وكل ذلك إرهاق له (٢) .

فاستعيرت حالة العذاب والشقاء لضد الحالــة الســابقة مــن النعــيم والراحة وفاعل "سأرهقه" وهو المسند إليه حذف لأنه معلوم لدى الســامعين لأن الذى سيكلفه ويحمله هذا هو الله تعالى فهو المعاقب وهــو المجــازى ، والقادر على الأخذ ، و – الصعود – يقال للعقبة ، ويستعار لكلِّ شاقٍّ ، وهو العقبة الشديدة التصعُّد الشاقَّة على الماشى ، وهى فعول مبالغة من صعد فإن العقبة صعدة ، فإذا كانت عقبة أشد تصعداً من العقبات المعتادة قيــل لهــا :

---

(١) المفردات مادة رهق / ٢٠٤.

(٢) التحرير والتنوير ٣٠٧/٢٩.

صعود ، وكان أصل هذا الوصف أن العقبة وصفت بأنها صاعدة على طريق المجاز العقلى لعلاقة الفاعلية ثم جعل ذلك الوصف اسم جنس لها (١)

روى الحاكم والترمذى عن أبى سعيد الخدرى – ﷺ – عن النبى – ﷺ – أنه قال : " والصعود جبل فى النار فيتصعدُ فيه – أى الكافر – سبعين خريفاً ثم يهوى وهو كذلك (٢) قال الحاكم هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه (٣) .وقال الترمذى : هذا حديث غريب إنما نعرفه مرفوعاً من حديث ابن لهيعة (٤) وقد ضعَّف هذا الحديث محققُ الجامع لأحكام القرآن بقوله : "ضعيف . أخرجه الترمذى من حديث أبى سعيد ، وضعفه – أى الترمذى – بقوله : غريب ، وقد روى عن أبى سعيد موفوعاً أ . هـ فيه ابن لهيعة واه وشيخه درَّاج عن أبى السمح وهذه علة ثانية فالخبر ضعيف ، والراجح وقفه " (٥)

وفى تفسير الجامع لأحكام القرآن عند تفسير قوله تعالى من سورة الجن : ﴿يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ (٦) ما نصُّه : " الصعود : العقبة الكؤود ، وقال عكرمة هو صخره ملساء فى جهنم يكلُّف صعودها . فإذا انتهى إلى أعلاها صدر إلى جهنم ، وقال الكلبى : يكلُّف الوليد بن المغيرة أن يصعد جبلاً فى النار من صخرة ملساء يجذب من إمامه بسلاسل ، ويضرب من

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠٧/٢٩.

(٢) المستدرك على الصحيحين ٥٠٧/٢ ك تفسير سورة المدثر ، عارضة الأحوذى ٢٢٥/١٢ .٢٢٦ك التفسير ح رقم ٣٣٣٨.

(٣) المستدرك ٥٠٧/٢.

(٤) عارضة الأحوذى ٢٢٥/١٢ ، ٢٢٦ .

(٥) الجامع لأحكام القآن ٦٨/١٩ ت أ . عبد الرزاق المهدى .

(٦) الجن /١٧ .

خلفه بمقامع حتى يبلغ أعلاها ولا يبلغ فى أربعين سنة ، فإذا بلـــغ أعلاهـــا أصدر إلى أسلفها ، ثم يكلف أيضاً صعودها فذلك دأبه أبداً (١) ، ولهذا قيل : إنه طال به النزع فكانت تتصاعد نفسه ثم لا يموت ، وقد جعل له من عذاب النار ما أسفر عنه عذاب الدنيا .

قوله تعالى : ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾

النظم البلاغى : قوله : "إنه فكر " تعليل لاستحقاقه هذا الوعيد الأنف الذكر ، وهو جملة مبيِّنة لجملة " إنه كان لآياتنا عنيداً " فهى تكمله وتبيـــين لها، ومن هنا فصلت هذه الجملة " إنه فكَّر وقدَّر " عن جملة " إنه كان لآياتنا عنيداً" لكونها بدل اشتمال منها لكمال الاتصال " لكونها أدلَّ على الغـــرض ، وأوفى بالمطلوب من جهة ، والعناية بشأنها من جهة أخـــرى (٢) ، وبـــدل الاشتمال " هو الدالُّ على معنى فى متبوعه (٣) ، وهو ما كان المبدل منـــه ليس داخلاً فى مفهوم البدل ، فإن كلاً من الفكر والتقدير ليسا داخلـــين فـــى مفهوم المبدل منه ، لأننا يمكن لنا أن نتصور الوليد بدون هذين الأمـــرين ، وقد ذكرت جملة البدل " إنه فكَّر وقدَّر " لأنها أو فى بالغرض من حيث مـــا تحمله من بيان حاله هذه ، وقد وصف الله تعالى " حاله فى تـــردُّده وتأملـــه بأبلغ وصف ، فابتدئ بذكر تفكيره فى الرأى الذى سيصدر عنه وتقـــديره ، ومعنى: " فكر " أعمل فكره وكرَّر نظر رأيه ليبتكر عذراً يموِّهه ويروِّجـــه

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٩/٢٠، ٢١ .

(٢) البلاغة فنونها وأفنانها " علم المعانى " /٤٠٨ د/ فضل عباس .

(٣) شرح ابن عقيل ٢/٢٢٨ .

على الدهماء فى وصف القرآن بوصف كلام الناس ليزيل عنهم اعتقاد أنه أوحى به إلى النبى - ﷺ - (١) .

وقيل المعنى : فكَّر فى الأمر الذى يريده ونظر فيه وتدبَّره ورتَّب فى قلبه كلاماً وهيَّأه لذلك الأمر ، وهو المراد بقوله : "وقدَّر " أى قدَّر ذلك الكلام فى قلبه (٢) ، وقيل : إن المراد بالفعل " قدر " هو أنه جعل مدركاً لما يخطر بخاطره أن يصف به القرآن ليعرضه على ما يناسب ما ينحله القرآن من أنواع كلام البشر أو ما يسم به النبى - ﷺ - من الناس المخالفة أحوالهم للأحوال المعتادة فى الناس -كما سنعلم قوله بعد ذلك - (٣)

قوله تعالى : ﴿ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ. ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾

النظم البلاغى : قوله : "فقتل" تفريع لذمِّه عن سيئ فعله ، وهى جملة معترضة بين قوله : "إنه فكر وقدَّر " وقوله : " ثم نظر " وهو إنشاء وابتداء شتم مفرع على الأخبار بأن الوليد " فكَّر وقدَّر " لأن الذى ذكره يوجب الغضب عليه .

قال الشيخ الطاهر ابن عاشور : والتفريع لا ينافى الاعتراض لأن الاعتراض وضع الكلام بين كلامين متصلين مع قطع النظر عما تألفَّ منه الكلام المعترض فإن ذلك يجرى على ما يتطلبه معناه ، والداعى إلى

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠٧/٢٩ .

(٢) تفسير الخازن وبهامشه البغوى ١٧٥/٦ ، حاشية الجمل ٤٣٨/٤ ، حاشية الصاوى ٢٥١/٤ .

(٣) التحرير والتنوير ٣٠٨/٢٩.

الاعتراض هو التعجيل بفائدة الكلام للاهتمام بها(١) ، ثم يقول : " ومن زعموا أن الاعتراض لا يكون بالفاء فقد توهموا (٢) .

والفعل " قتل " بمعنى لعن وعذب فى الدنيا ، وهو دعاء عليه بأن يقتله قاتل ، أى أنه دعاء عليه بتعجيل موته وذلك لأن حياته حياة مرذولة سيئة ، وهذا الدعاء مستعمل فى التعجُّب والإنكار والتوبيخ من مآله والرثاء له ، وهو مشهور فى كلام العرب .

قال الشيخ أبو حيان: " قيل -قتل - لعن ، وقيل : غلب وقهر ، وذلك من قوله - (٣) أى قول امرئ القيس -بسهميك فى أعشار قلب مقتَّل . أى مذلَّل مقهور بالحب فلعن دعاء عليه بالطرد والإبعاد وغلب وذلك إخبار بقهره وذلته ، وقيل : دعاء مقتضاه الاستحسان والتعجب فقيل ذلك لمنزعه الأول فى مدحه القرآن ، وفى نفيه الشعر والكهانة والجنون عنه ، وقيل ذلك لإصابته ما طلبت قريش منه ، وقيل ذلك ثناء عليه على جهة الاستهزاء به(٤) .

ثم يقول أيضاً : " قولهم - قاتلهم الله (٥) مشهور فى كلام العرب أنه يقال عند استعظام الأمر والتعجب منه ومعناه أنه بلغ المبلغ الذى يحسد عليه

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠٨/٢٩ ، البرهان فى علوم القرآن ٥٦/٣ ، نقد الشعر /١٥٠ وسماه الالتفات ، بديع القرآن /٤٢ ت د حفنى شرف ط نهضة مصر سنة ١٩٥٧م، الإيضاح ٢١٤/٣ .

(٢) التحرير والتنوير ٣٠٨/٢٩.

(٣) شرح القصائد العشر /٣٦ ، صدره :وما ذرفت عيناك إلا لتضربى بسهميك والقصيدة من بحر الطويل شرح التبريزى .

(٤) البحر المحيط ٣٧٤/٨ .

(٥) ووردت فى آيتين التوبة /٣٠ ، المنافقون /٤.

ويدعى عليه من حساده ، والاستفهام في – كيف قدر – في معنى ما أعجب تقديره وما أغربه كقولهم أي رجل زيد أي ما أعظمه (١) .

ومثل هذا القول قد يستعمل في التعجيب من حسن الحال ألا تراهم – أي العرب –يقولون : قاتله الله ما أشجعه ، قاتله الله ما أشعره ؟، قاتله الله ما أخزاه ونحو ذلك كثير .

وقد جعل العلاَّمة الزمخشري هذا الدعاء من باب الكناية فيقول : " فقتل كيف قدَّر – تعجيب من تقديره وإصابته فيه المحزَّ ورميه الغرض الذي كان تنتحيه قريش ،أو ثناء عليه على طريق الاستهزاء به ، أو هي حكاية لما كرروه من قولهم : قتل كيف قدر تهكماً بهم ، وبإعجابهم بتقديره واستعظامهم لقوله ، ومعنى قول القائل : قتله الله ما أشجعه وأحزاه الله ما أشعره ، الإشعار بأنه قد بلغ الذي هو حقيق بأن يحسد ويدعو عليه حاسده بذلك (٢) .

وقد عقَّب الشيخ الطاهر ابن عاشور على كلام جار الله بأن الحسد هنا غير مقصود ولا ملحوظ ، وأن المراد بالكناية هنا بيان سوء حاله فيقول: وأنا أحسب أن معنى الحسد غير ملحوظ وإنما ذلك مجرَّد اقتصار على ما في تلك الكلمة من التعجب أو التعجيب لأنها صارت في ذلك كالأمثال ، والمقام هنا متعين للكناية عن سوء حاله لأن ما قدَّره ليس مما يغتبط ذوو الألباب على إصابته إذ هو ناقض قوله ابتداءً إذ قال : ما هو بعقد السحرة ولا نفثهم، وبعد أن فكَّر قال : – إن هذا إلا سحر يؤثر – فناقض نفسه (٣).

---

(١) البحر المحيط ٣٧٤/٨ ، الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية /٢٤٥ د صبَّاح دراز.

(٢) الكشاف ١٨٣/٤.

(٣) التحرير والتنوير ٣٠٨/٢٩ ، ٣٠٩.

روى الحاكم من حديث ابن عباس – رضى الله عنهما – : أن الوليد ابن المغيرة جاء إلى النبى – ﷺ – فقرأ عليه القرآن فكأنه رقَّ له فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال يا عم إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالاً قال لم قال ليعطوكه فإنك أتيت محمداً لتعرض لما قبله قال قد علمت قريش أنى من أكثرها مالاً قال فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر له أو أنك كاره له قال وماذا أقول فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار منى ولا أعلم برجز ولا بقصيدة منى ولا بأشعار الجن والله ما يشبه الذى يقول شيئاً من هذا والله إن لقوله الذى يقول حلاوة وإن عليه لطلاوة – رونقاً وحسناً – وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسلفه وإنه ليعلو وما يعلى وإنه ليحطم ما تحته قال لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه . قال فدعنى حتى أفكر فلما قال هذا سحر يؤثر يأثره عن غيره فنزلت – ذرنى ومن خلقت وحيداً – ثم قال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد على شرط البخارى ولم يخرجاه (١)

وقوله : " ثم قتل كيف قدَّر " جملة مؤكِّدة لسابقها ، وهو تكرير للمبالغة كما هو العادة ممَّن أعجب من شئ غاية الإعجاب ، والعطف بـ " ثم " للدلالة على تفاوت الرتبة ، وأن الثانية أبلغ من الأولى فكأنه قيل قتل بنوع ما من القتل بل قتل بأشده وأشده ، ولهذا ساغ العطف فيه مع أنه تأكيد، لأنه إذا كان المعطوف بها عين المعطوف عليه أفادت أن معنى المعطوف عليه ذو درجات متفاوتة مع أن التأكيد يكسب الكلام قوة (٢) .

---

(١) المستدرك ٢/٥٠٦ ، ٥٠٧ ، وقد بسط هذا الحديث بسطاً-وطولاً فى كتب التفسير وإعجاز القرآن مع اختلاف فى روايته .

(٢) الكشاف ٤/١٨٣ .

وتكرير العبارة " ثم قتل كيف قدَّر " تأكيداً لذمـــه وتقبيحـــاً لحالـــه ، ولغاية التهكم به ، كأنه قال : قاتله الله مـــا أروع تفكيـــره ، وأبـــدع رأيـــه الحصيف ؟

حيث قال عن القرآن إنه " سحر يُؤثَرْ " .

<u>أو كما قال العلامة الزمخشري إنه</u> : " ثنـــاء عليـــه علـــى طريقـــة الاستهزاء به أو هى حكاية لما كرروه من قولهم : – قتل كيف قدر – تهكما بهم وبإعجابهم بتقديره ، واستعظامهم لقوله – سحر يؤثر – .

<u>وقد بيَّن – رحمه الله – سرَّ العطف بـــ</u> "ثم" دون الفاء كما فى قوله : " فقتل كيف قدر" بقوله : فإن قلت : ما معنى – ثم – الداخلـــة فـــى تكريـــر الدعاء ؟ قلت : الدلالة على أن الكرَّة الثانية أبلغ من الأولى ونحـــوه قـــول القائل:

ألا يا اسلمى ثم اسلمى ثُمتَّ اسلمى . (١) .

وقوله : " كيف قدَّر " يحتمل أنه تعجيب من قوة خاطره ، يعنى أنه لا يمكن القدح فى أمر محمد – عليه الصلاة والسلام – بشبهه أعظم ولا أقوى مما ذكره هذا القائل ، أو الثناء عليه على طريقة الاستهزاء ، يعنى أن هـــذا الذى ذكره فى غاية الركاكة والسقوط ، وكما قيل : إن الإطراء فى الإعجاب بتقديره يدل على غاية التهكم به وبمن فرح بمحصول تفكيره ، " كيف قدر " فى الموضعين متحد المعنى وهو اسم استفهام موجَّه إلى سامع غيـــر معـــين يستفهم المتكلم سامعه استفهاماً عن حالة تقديره، وهو استفهام مستعمل فـــى التعجيب المشوب بالإنكار على وجه المجاز المرسل بعلاقة الإطلاق والتقييد

---

(١) السابق نفسه ، صدر بيت عجزه : ثلاث تحيات وإن لم تكلمـــى . ديـــوان الحماســـة ١٣٧/٢.

و " كيف " فى محل نصب على الحال مقدَّمة على صاحبها لأن لها الصدر ، وعاملها الفعل – قدَّر – (١) .

قوله تعالى : ﴿ثُمَّ نَظَرَ. ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ. ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴾ .

النظم البلاغى . قوله : "ثم نظر" إلخ جمل معطوفة على قوله : " إنه فكَّر وقدَّر " وهى من باب الارتقاء المتوالى لما يقتضى التعجيب من حاله والإنكار عليه ، فالتراخى هنا تراخى رتبة لا تراخى زمن ، وذلك أن نظره وعبوسه وبسره وإدباره واستكباره مقارنة لتفكيره وتقديره ، وقيل : نظر فى أمر القرآن بقرينة قوله تعالى : " إنه كان لآياتنا عنيداً ، والنظر هنا بمعنى الفكر، وقد تقدَّم أنه فكَّر فيه فيفيد هذا تكريره (٢) .

فالمراد بالنظر فى الآية : أن الوليد أجال النظر مرة أخرى متفكّراً فى شأن القرآن ، فكأن الرجل هذا نظر فى وجوه الحاضرين يستخرج آراءهم فى انتحال ما يصفون به القرآن ، ونظر العين مراد ليكون زائداً على ما أفاده قوله تعالى : " فكَّر وقدَّر " وجاء – نظر – هنا " مضمناً معنى اللازم اقتصاراً على الوصف والحدث (٣) .

قال الإمام الفخر : " ثم نظر – والمعنى أنه – أولاً – فكَّر ، وثانياً – قدَّر – وثالثاً – نظر فى ذلك المقدَّر فالنظر السابق للاستخراج ، والنظر اللاحق للتقدير ، وهذا هو الاحتياط ، فهذه المراتب الثلاثة متعلقة بأحوال قلبه(٤) .

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠٩/٢٩ ، الأساليب الإنشائية /١٣ د/ صباح دراز.

(٢) حاشية الشهاب ٢٧٥/٨.

(٣) الأساليب الإنشائية /١٧ د/ صبَّاح دراز .

(٤) التفسير الكبير ٢٠١/٣٠ .

وقوله : " ثم عبس " معطوف على الفعل " نظر" والمراد قطب وجهه لما لم يجد فى القرآن مطعناً وضاقت عليه الحيل ولم يدر ماذا يقول ، وقيل : ثم نظر فى وجوه القوم ثم قطب وجهه ، وقيل : نظر إلى رسول الله – ﷺ – ثم قطب فى وجهه " عليه الصلاة والسلام " .

وقوله : " بسر " أى وزاد فى القبض والكلوح ، كالمهتَّم المتفكِّر فى أمر يدَبّره .

قال ابن جزى : " السبور هو تقطيب الوجه وهو أشد من العبوس ، وفعل ذلك من حسده للنبى – ﷺ – أى عبس فى وجهه – عليه الصلاة والسلام – أو عبس لما ضاقت عليه الحيل ولم يدر ما يقول (١) .

وهنا يصف الله تعالى أحوال وجه الوليد وما ظهر عليه من أمارات أو دلائل تدل على مدى حنقه وغضبه من أمر القرآن أو أمر الرسول – ﷺ–

قال الإمام الفخر : " اعلم أن قوله – عبس وبسر – يدل على أنه كان عارفاً فى قلبه صدق محمد – ﷺ – إلا أنه كان يكفر به عناداً ، ويدل عليه وجوه : – الأول – أنه بعد أن تفكَّر وتأمَّل قدَّر فى نفسه كلاماً عزم على أنه يظهره ظهرت العبوسة فى وجهه ولو كان معتقداً صحة ذلك الكلام لفرح باستنباطه وإدراكه ، ولكنه لما لم يفرح به علمنا أنه كان يعلم ضعف تلك الشبهة إلا أنه لشدة عناده ما كان يجد شبهه أجود من تلك الشبهة ، فلهذا السبب ظهرت العبوسة فى وجهه. – الثانى – ما روى من حديث سماع الوليد سورة فصلّت من الرسول – ﷺ – وما جرى بينه وبينه – عليه الصلاة

---

(١) التسهيل فى علوم التنزيل ٤/١٦١ .

والسلام (١) – الثالث – أنه – أى الوليد – كان يعلم أن أمر السحر مبنىٌ على الكفر بالله ، والأفعال المنكرة ، وكان من الظاهر أن محمداً لا يدعو إلا إلى الله ، فكيف يليق به السحر ؟ فثبت بمجموع هذه الوجوه أنه إنما – عبس وبسر – لأنه كان يعلم أن الذى يقوله كذب وبهتان (٢) .

وقد وضَّح الراغب – رحمه الله – معنى الفعل " بسر" توضيحاً دقيقاً، وذلك بقوله : " البسر الاستعجال بالشئ قبل أوانه نحو بسر الرجل الحاجة طلبها فى غير أوانها ، وبسر الفحل الناقة ضربها قبل الطلب ، وماء بسر متناول من غيره قبل سكونه ، وقيل للقرح الذى ينكأ قبل النضج بسر ، ومنه قيل لما لم يدرك من التمر بسر ، وقوله عز وجل : – ثم عبس وبسر – أى أظهر العبوس قبل أوانه وفى غير وقته (٣) .

وقد تمَّ العطف فى هذه الجمل بحروف مختلفة ، ولكل منها مناسبة أما ما عطف بـ "ثم" فلأن بين الأفعال مهلة وتأنياً ، لأن بين النظر والعبوس ، وبين العبوس والإدبار تراخياً .

<u>وبيَّن العلامة الومخشرى</u> : سرَّ العطف بـ "ثُمَّ" بين الأفعال المذكورة فقال : " فإن قلت ما معنى المتوسطة – أى ثم – بين الأفعال التى بعدها قلت : الدلالة على أنه قد تأنىَّ فى التأملُ وتمهَّل ، وكان بين الأفعال المتناسقة تراخٍ وتباعد (٤) .

---

(١) أسباب النزول للواحدى /٣٣٠ ، ٣٣١ ، ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ، النكت للرمانى ، ١٢٢/١٢٤ ، ونسب الرمانى الاستماع إلى عتبة بن ربيعة " فى رواية عن محمد بن كعب القرظى .

(٢) التفسير الكبير ٢٠٢/٣٠ بتصرف.

(٣) المفردات مادة بسر /٤٦ .

(٤) الكشاف ١٨٣/٤ ، الدر المصون ٤١٦/٦ .

وقوله : ثم أدبر واستكبر " معطوف على ما سبق من الجمل المعطوفة بـ "ثُم" و "الإدبار" كما يقول الشيخ الطاهر ابن عاشور : يجوز أن يكون مستعاراً لتغيير التفكير الذى كان يفكّره ويقدّره يأساً من أن يجد ما فكّر فى انتحاله فانصرف إلى الاستكبار والأنفة من ان يشهد للقرآن بما فيه من كمال اللفظ والمعنى (١) .

وعلى هذا فالفعل "أدبر" استعارة تبعية استعير لتغيير الرأى والفكر . ثم يقول أيضاً – رحمه الله – : " ويجوز أن يكون مستعاراً لزيادة إعراضه عن تصديق النبى – ﷺ – (٢) ، وهو استعارة تمثيلية لتشبيه حالة إعراضه ونفوره عن سماع دعوة الرسول – ﷺ – وعدم تصديقه لما جاء به من الهداية والدعوة الصادقة بحال من أعرض عن غيره لعدم اهتمامه بحديثه أو دعوته مع وجود الباعث على هذا الإعراض وهو الاستكبار والنفور ، والعطف فى الآية مساوٍ فى المعنى لما سبق . فوصف الله تعالى الأشكال التى تشكّل بها الوليد لما أجهد نفسه فى استنباط وصف يصف به القرآن وهذا – كما ذكرنا آنفاً – تهكُّم به ، وقيل : إن المراد أنه أدبر عن سائر الناس إلى أهله ثم استكبر أى تعظُّم عن الإيمان والحقّ أو عن رسول الله – ﷺ – .

قوله تعالى : ﴿ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ يُؤْثَرُ . إِنْ هَذَا إِلا قَوْلُ الْبَشَرِ . سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾

النظم البلاغى : " فقال " إلخ معطوف على ما سبق لبيان ما أنتجته قريحته بعد النظر والعبوس والبسور والإدبار والاستكبار ، أى قال الوليد :

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩/٣٠٩ ، ٣١٠ .

(٢) السابق نفسه.

إن ما يقوله محمد – عليه الصلاة والسلام – ويرويه ويتعلَّمه من سحرة بابل وغيرهم : " ويؤثره من صاحب اليمامة مسليمة الكذاب ، ويقال : معناه مـــا هذا الذى يقول إلا سحر يرويه عن جابر ويسار أو عن أهل بابل (١) .

وجاء الفعل هنا معطوفاً بالفاء دون ما سبق . لأنه كما يقول – جـــار الله – لأن الكلمة – سحر – لما خطرت بباله بعد التطلُّب لم يتمالك أن نطق بها من غير تلبث (٢) . فقد استخدم الوليد حرف الفاء للدلالة على أنـــه لمـــا خطر بباله وجرى على عقله كون القرآن تمويهاً وتخُّيلاً يسحر بـــه محمـــد – ﷺ – العقول والقلوب من خلال زعمه صرح بكونه كذلك دون تـــرُّدد أو تفكير . فالفاء هنا للتعقيب من غير مهلة ، وعلى هذا فلا مخالفة فيها مع ما سبق من الآيات .

وقوله : " إن هذا إلا سحر يؤثر " أســـلوب قصـــر طريقـــه النفـــى والاستثناء ، حيث قصر ما يقوله محمد – ﷺ – على كونـــه مـــن الســـحر والتخييل ، من قصر الموصوف على الصفة قصراً إضافياً قصر تعيين .

وجملة "يؤثر" صفة لقوله : "سحر" والمراد أنه منقول عن السحرة ، وقوله هذا مذكور بفاء التعقيب ليعلم أنه لمَّا ولَّى واستكبر . ذكر هذه الشبهة ونطق بها ، فكان نطقه بها حقيقاً بأن يعطف بحرف التعقيب – الفاء –.

<u>يقول الإمام الفخر – رحمه الله</u> –: وفى قوله – يؤثر – وجهـــان – الأول – أنه من قولهم : آثرت الحديث آثراً إذا حَّدثت به عن قوم فى أثارهم،

---

(١) تفسير السمرقندى المسمى بحر العلوم ٤١٢/٣ .

(٢) الكشاف ١٨٣/٤ ، تفسير البيضاوى ٣٩٨/٥ ، أبو الســـعود ٥٨/٩ ، روح المعـــانى ١٢٤/٢٩ .

أى بعد ما ماتوا هذا هو الأصل ، ثم صار بمعنى الرواية عمن كان –والثانى– يؤثر على جميع السحر ، وعلى هذا يكون هو من الإيثار (١) .

وصيغة الحصر أو القصر فى قوله تعالى : " إن هذا إلا قول البشر " جاءت مشعره بأن استقراء أحوال القرآن بعد السبر والتقسيم (٢) أنتج له أنه من قبيل السحر ، فهو قصر تعيين لأحد الأقوال التى جالت فى نفسه لأنه قال: ما هو بكلام شاعر ولا بكلام كاهن ولا بكلام مجنون كما تقدم فى خبره، ووصف هذا السحر بأنه مأثور . أى مروى عن الأقدمين ، يقول هذا ليدفع به اعتراضاً يرد عليه أن أقوال السحرة وأعمالهم ليست مماثلة للقرآن ولا لأحوال الرسول فزعم أنه أقوال سحرية غير مألوفة .(٣) .

وقوله : إن هذا إلا قول البشر " تأكيد لقوله : " إن هذا إلا سحر يؤثر " أى أنه ملتقط من أقوال الناس وهى جملة مفصولة عن سابقتها لأنها بدل اشتمال فبينهما كمال اتصال ، ولذا جاءت هذه الجملة دالة على الغرض الذى أراده الوليد بوسم القرآن بكونه سحراً مأثوراً عن أهل بابل أو غيرهم من البشر ، كما أنها وفَّت بمطلوبه من جهة ، وزاد بهذه الجملة عناية بشأن مقولته الشنعاء من حهة أخرى ، فأراد بهذا أيضاً أن يؤكد على أن السحر يكون أقوالاً فهذا من السحر القولىّ ، فجاءت هذه الجملة " إن هذا إلا قول البشر "بمثابة النتيجة لما تقدّم لأن المقصود ومرمى الجامع من كلامه ذلك

---

(١) التفسير الكبير ٣٠/٢٠٢ ، ٢٠٣.

(٢) هما مصطلحان فى علم الجدل كأن يُحرِّم شئ لا يُدرَى لتحريمه علّةُ فيردُ على من حرمه ، وأن هذا أمرُ تعبدىُّ ، والأخذ فيه عن الوحى أو الرسول . الإتقان ٢/١٧٣ ، البلاغة المختارة /١٩٤ .

(٣) التحرير والتنوير ٢٩/٣١٠.

كله أن القرآن ليس وحياً من الله ثم جاء بهذه الجملة أيضاً بأسلوب القصر عن طريق النفى والاستثناء الذى يفيد أن الوليد يخاطب هؤلاء القوم الذين يجهلون ما جاء به الرسول - ﷺ - وينكرونه ، أو أنهم قد نُزِّلوا منزلة المنكر لشأن القرآن أو الجاهل لأمره وما فيه من زواجر وفوائد .

قال الإمام الفخر مبيّناً مراد الوليد من قوله ذلك : " واعلم أن هذا الكلام يدل على أن الوليد إنما كان يقول هذا الكلام عناداً منه ، لأنه روى عنه أنه لما سمع من رسول الله - ﷺ - حم السجدة - سورة فصلت - وخرج من عند الرسول - ﷺ - قال سمعت من محمد كلاماً ليس من كلام الإنس ولا من كلام الجن ، وإن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وأنه يعلو ولا يعلى عليه ، فلما أمر بذلك فى أول الأمر علمنا أن الذى قاله ههنا من أنه قول البشر ، إنما ذكره على سبيل العناد والتمرُّد لا على سبيل الاعتقاد (١) .

وقد فصلت جملة " إن هذا إلا قول البشر " عن جملة " إن هذا إلا سحر يؤثر " ولم يتم الوصل بينهما لأنه كما يقول العلاَّمة الزمخشرى : "فإن قلت : فَلِمَ لَمْ يوسَّط حرف العطف بين الجملتين ؟ قلت : لأن الأخرى جرت من الأولى مجرى التوكيد من المؤكد (٢) . أى أن ذلك من مسوِّغات الفصل بين الجمل وهو التأكيد لكمال الاتصال .

قوله تعالى : ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾

النظم البلاغى : قوله : "سأصليه "جملة مستأنفة استئنافاً بيانياً ناشئاً عن قوله تعالى : " إنه فكَّر وقدَّر " إلى آخر الآيات فذكر وعيده وبعذاب الآخرة ، ومن هنا فصلت عن سابقتها لسبه كمال الاتصال كأن سائلاً سأل

---

(١) التفسير الكبير ٢٠٣/٣٠ .

(٢) الكشاف ١٨٣/٤ .

فما جزاء الوليد بن المغيرة بعدما قال ما قال فى شأن القرآن والرسول - ﷺ - ؟ فقال الله تعالى مبيناً جزاءه "سأصليه سقر " والسين حرف استقبال أى أن الجزاء الذى ينتظره فى الآخرة جهنم وما أدراك ما جهنم ؟

ويجوز أن يكون قوله تعالى : " سأصليه سقر " بدلاً من قوله تعالى " سأرهقه صعوداً كما صرَّح به فى الكشاف " (١) .

والإصلاء كما يقول الشيخ الطاهر ابن عاشور : جعل الشئ صالياً، أى مباشراً حرَّ النار ، وفعل صلى يطلق على إحساس حرارة النار لأجل التَّدفُّئ كقول الحارث بن حِلِّزة (٢) .

فتنورَّتُ نَارَها مِنْ بَعِيد * * بِخَزَازَى أيَّانَ مِنْكَ الصَّلاَءُ

أى أنت بعيد من االتدفئ بها ، ويطلق على الإحراق بالنار ، والأكثر إذا ذكر لفعل هذه المادة مفعول ثان من أسماء النار أن يكون الفعل بمعنى الإحراق ومنه الآيه التى معنا (٣)

وما يرجِّح كون قوله : " سأصليه سقر" بدل اشتمال من قوله :" سأرهقه صعوداً " اشتمال السقر على الشدائد وعلى الجبل من النار وأن الوصف الآتى لـ " سقر " لا ينافى الإبدال على إرادة الجبل بناءً على أن المراد بـ " صعوداً" هو جبل فى النار الحديث وقد مر من رواية الحاكم والترمذى (٤) .

---

(١) الكشاف ١٨٣/٤.

(٢) ديوانه /٣٨ ت ،طلال حرب ط ، دار صادر بيروت ط ، أولى سنة ١٩٩٦ م ، وروايته بخزاز هيهات ، وخزاز جبل بين العقيق وشخصين .

(٣) التحرير والتنوير ٣١١/٢٩.

(٤) المستدرك ٥٠٧/٢، عارضة الأحوذى ٢٥٥/١٢، ٢٢٦ ، تفسيّر سورة المدثر عند كل منهما.

قال الشيخ أبو حيان : ويظهر أنهما – الآيتان – جملتان اعتقبت كل واحدة منهما فتوعد على سبيل التوعد العصيان الذى قبل كل واحدة منهما فتوعد على كونه عنيداً لآيات الله بإرهاق صعود وعلى قوله بأن القرآن سحر يؤثر بإصلائه سقر (١) .

وسقر " اسم علم لجهنم ، أو اسم من أسماء النار ، ومن دركات جهنم

وجاء فى تفسير " روح البيان " للبروسوى ما نصُّه : " وقال ابن عباس – رضى الله عنهما – : – سقر – اسم للطبقة السادسة من جهنم يقال سقرته الشمس إذا آذته وألمته وسميت – سقر – لإيلامها (٢) .

وكذلك يرى ابن عطية – رحمه الله – أنها : الدرك السادس من جهنم (٣) وعلى ما ذكر فهو اسم ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث، وجمهور المفسرين يرى أنها مرادفه لجهنم ، وعلى كلٍّ فالمعنى : سأدخله جهنم يتلظَّى حرَّها ، ويذوق عذابها .

وذكر الإمام السيوطى : أن كلمة "سقر" معرَّب دون أن يذكر الكلمة المعرَّبة ولا من أى لغة هى ، وإنما نقل ذلك عن الجواليقى أنه اسم أعجمى(٤) .

وأخيراً فإن قوله تعالى : " سأصليه سقر " تعدُّ انتقالاً من حكاية ما قاله الوليد بن المغيرة إلى بيان الجزاء الذى ينتظره فى الآخرة ، وهذا جزاء كل جبَّار كفور ، وكل جبَّار عنيد ينهج نهجه ويقتفى أثره إلى يوم القيامة ،

---

(١) البحر المحيط ٣٧٥/٨ .
(٢) روح البيان ٢٣١/١٠ .
(٣) المحرر الوجيز ٣٩٥/٥ .
(٤) الإتقان ١٨١/١ .

وصدق الله العظيم : ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ .وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ (١) فالآيات السابقة فى شأن الوليد تعدُّ مثلاً يصوِّر الحركة المتقلبة والتوفُّز (٢) وعدم الاستقرار والإصرار على العناد ثم المآل الذى ينتظر صاحبه ، وقد أدى حرف الراء هذا المعنى خير أداء ، فبعد أن " فكَّر وقدَّر " انتهى به الأمر إلى سقر (٣)

---

(١) الزخرف /٣٦، ٣٧.

(٢) التوفُّز /التعجُّل فى الأمر.

(٣) الفصل والوصل فى القرآن الكريم /٢١٦ ، ٢١٧ د/ منير سلطان ، ط: دار المعارف سنة ١٩٨٣م .

المبحث الثالث

وصف سقر

وبيان عدد خزنة جهنم

قال تعالى : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ. لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ . لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ. عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ الآيات .

النظم البلاغي : قوله : " وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ" ؟ جملة معطوفة على قوله : "سأصليه سقر " موصولة بها لا تفاق الجملتين خبراً وإنشاء فقوله " سأصليه سقر " إخبار عن جزائه وتوعُّده بجهنم ، والثانية إنشائية لكونها استفهامية أو مبنية على الاستفهام ، " والواو عاطفة ، و – ما – اسم استفهام فى محل رفع مبتدأ ، و– أدراك – فعل ماض والفاعل مستتر تقديره هو ، والكاف حرف خطاب مفعول به أول ، والجملة خبر – ما والمعنى : أى شئ أعلمك ؟ و – ما الثانية اسم استفهام مبتدأ ، ، و – سقر – خبره ، والجملة سادةً مسدَّ المفعول الثانى لـ – أدراك – المعلقة عن العمل بالاستفهام(١).

والاستفهام مراد به التهويل والتفظيع أى وما أعلمك أىُّ شئ هى سقر ؟ والمعنى : وما أدراك – أيها السامع – ما سقر – فى شدّتها وهو لها وضيقها؟ وهو تهويل وتعظيم لشأنها كما يفيده الاستفهام الدالُّ على أنها مما لا يدرك حقيقته ويفهم مثله . يعنى أن هذا امر خارج عن دائرة إدراك العقول ففيه تعظيم لأمره وشأنه ، وجملة " وما أدراك ما سقر "جملة حالية من الآية التى قبلها " سأصليه سقر " والمراد : سقر التى حالها لا ينبئك به منبئ ، وهذا بيان لفظاعتها وشدة هولها وتغيظها على أهلها .

<u>يقول الدكتور المطعنى</u> : وهذا التركيب كيفما وقع يتكون من استفهامين لا استفهام واحد . الأول – هنا – قوله تعالى : " وما أدراك " ؟ وأما الثانى – هنا كذلك – فهو قوله تعالى : " وما سقر" ؟ والمراد من

---

(١) إعراب القرآن وبيانه ٢٧٩/١٠.

الاستفهام الأول هو النفى أو الإنكار . أما المراد من الاستفهام الثانى فهو التعظيم والتفخيم والتعجيب ، ومجموع الاستفهاميين مستعمل فى تهويل المستفهم عنه والدعوة إلى التعجيب من شانه ، وهذه خلاصة ما يقال فيهما(١) . ثم يقول أيضاً : فالاستفهام الأول نفى وإنكار أن يكون عند المخاطب علم محيط بحقيقتها وشأنها الغريب العجيب ، والثانى تعجيب خالص من حالها التى هى عليها (٢) .

قوله تعالى : ﴿ لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ﴾

النظم البلاغى : قوله : " لا تبقى " بدل اشتمال من التهويل الذى أفادته جملة " وما أدراك ما سقر " فإن من أهوالها أنها تهلك كلَّ من يصلاها ، ومن هنا فصلت هذه الجملة عن سابقتها لأن بين الجملتين كمال اتصال ، فجملة " لا تبقى ولا تذر " أدلُّ على الغرض وأفصح فى بيان حال " سقر " ولتفخيم شأنها وتهويل أمرها ، أو حالية ، والعامل فيها معنى التهويل والتعظيم لأمرها ، وذلك لأن الاستفهام بقوله تعالى : " ما سقر " للتعظيم فالمعنى: استعظموا سقر فى هذه الحال ، أو هى جملة مستأنفة لبيان حالها أو لتفخيم شأنها . كأن سائلاً سأل : وما حال سقر هذا المفخَّم والمعَّظم ؟ فقيل : لا تبقى شيئاً ولا تذره ومن هنا فصلت لأن بين الجملتين شبه كمال الاتصال إذ الاستئناف من مسوِّغات الفصل بين الجمل .

ويرى بعض المحدثين : إلحاق شبه كمال الاتصال بضرب كمال الاتصال وذلك إذا وقعت الجملة الثانية من الأولى موقع الجواب عن سؤال

---

(١) التفسير البلاغى للاستفهام فى القرآن ٤/٣١٠.

(٢) السابق ٤/٣١١.

صريح أو مقدر (١) ومستنده فى ذلك كلام الإمام عبد القاهر – رحمه الله – إذ يقول : "فترك العطف يكون إما للاتصال إلى الغاية ، أو الانفصال إلى الغاية (٢) ويقصد بالاتصال كمال الاتصال ، وإدخال شبه كمال الاتصال فى هذا الضرب دخولاً أولياً، وكذلك مراده بالانفصال كمال الانقطاع مع دخول شبه كمال الانقطاع فى هذا الضرب ويعدُّ كلُّ واحد من الشبهين صورة من صور كمال الاتصال أو كمال الانقطاع.

وحذف مفعول " تبقى " لقصد العموم ، والمعنى لا تبقى منهم أحداً أولاً تبقى من أجزائهم شيئاً ، أولاً تبقى ما يلقى فيها ولا تذره أى تفنيه وتهلكه ، وقوله : " ولا تذر " معطوف على قوله : " لا تبقى " فهى فى معنى الحال ، أى "ولا تبقى لهم لحماً إلا أكلته ولا تذرهم إذا أعيدوا خلقاً جديداً إلا أكلتهم وهكذا أبداً وهى لا تقنع بمجرد التعذيب بنوع من أنواع العذاب بل تبالغ فى تعذيبه إلى أن تهلكه (٣) .

وقوله تعالى : " لا تبقى ولا تذر " قيل : إنهما لفظان مترادفان بمعنى واحد ، وقيل : إنهما متغايران ، ولتوضيح ذلك نتأمَّل ما ذكره الإمام الفخر – رحمة الله –

حيث يقول : " منهم – من العلماء – من قال هما لفظان مترادفان معناهما واحد ، والغرض من التكرير التأكيد والمبالغة كما يقال صدَّ عنى وأعرض عنى ، ومنهم من قال لا بدَّ من الفرق ، ثم ذكروا وجوهاً . –

---

(١) دراسات فى علم المعانى /١٩٦ د/ حسن مخيمر ط :الأمانة مصر ط : أولى سنة ١٤٠٩ هـ سنة ١٩٨٩م.

(٢) دلائل الإعجاز /٢٤٣ ت : الشيخ شاكر.

(٣) حاشية الشيخ زادة على البيضاوى ٥٧٣/٤. .

أحدها أنها لا تبقى من الدم واللحم والعظم شيئاً فإذا أعيدوا خلقاً جديداً تـــذر أن تعاود إحراقهم بأشدَّ مما كانت ، وهكذا أبداً ، وهذا رواية عطاء عن ابن عباس ، – وثانيهما – لا تبقى من المستحقين للعذاب إلا عذَّبتهم ، ثم لا تذر من أبدان أولئك المعذبين شيئاً إلا أحرقته ، – وثالثها – لا تبقى مـــن أبـــدان المعذبين شيئاً . ثم إن تلك النيران لا تذر من قوتها وشدَّتها شيئاً إلا وتستعمل تلك القوة والشدة فى تعذيبهم (١)

وكذلك حذف مفعول " تذر " أيضاً لقصد العموم . أى لا تترك من يلقى فيها ، أى لا تتركه غير مصلى بعذابها ، وهذه كناية عن إعادة حياته بعـــد إهلاكه كما قال تعالى : ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ الْعَذَابَ﴾ (٢) .

<u>قوله تعالى : " لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ "</u>

<u>النظم البلاغى</u> : قوله : " لوَّاحة " خبر لمبتدأ محذوف وهو المسند إليه تقديره هى لوقوعه فى جواب الاستفهام " وما أدراك ما سقر " إذ لا فائدة من ذكره لأن ذكره حينئذ يعدُّ عبثاً ،" وللبشر" متعلقان بـــ " لوَّاحة " والجملة حال ثانية أو استئنافية .

<u>قال الشيخ الجمل</u>: قوله – لوَّاحة للبشر – قرأ العامة بالرفع خبر مبتدأ مضمر أى هى لواحة ، وهذه القراءة مقوِّية للاستئناف فى – لا تبقى – وقرأ الحسن وابن أبى عبلة وزيد بن على وعطية العوفى بنصبها على الحـــال ، وفيها ثلاثة أوجه . أحدها : أنها حال من – سقر – والعامـــل فيهـــا معنـــى التعظيم كما تقدَّم ، والثانى : أنها حال من – لا تبقى – ، والثالث : من – لا

---

(١) التفسير الكبير ٢٠٣/٣٠ .

(٢) النساء /٥٦ ، التحرير والتنوير ٣١٢/٢٩ .

تذر – وجعل الزمخشرى نصبها على الاختصاص للتهويل ، وجعله الشيخ – أبو حيان – حالاً مؤكدة قال : لأن النار التى لا تبقى ولا تذر لا تكـون إلاّ مغيرّة للأبشار (١) .

والثانى : وإليه ذهب الجمهور أنها من لوَّحه أى غيَّره وسوَّده ، وهو ما ذهب إليه ابن عباس ومجاهد وقتادة وَأبو رزين (٢) .

وقيل : "اللوح " شدة العطش يقال : لاحه العطش ولوَّحه غيَّره أو غيَّر خلقته ، وعليه قول القائل . (٣) .

تقـول مـا لاَحك يَا مُسافِرُ * * يا ابنة عمى لاَ حنِى الهواجرُ

و"اللُّوح"بالضمِّ : الهواء بين السماء والأرض (٤) .

و " البشر " إما جمع بشرة أى مغيِّرة للجلود ، وإما أن يكون المراد به الإنس ، واللام فى " البشر " مقوِّية كما فـى قولـه : – إن كنـتم للرؤيـا تعبرون– (٥) ، وقراءة النصب فى "لوَّاحة "مقوِّية لكون – لا تبقـى – فـى محل الحال (٦) .

<u>اعتراضُ وردُّه</u> : وملخَّص هذا الاعتراض أنه لا يصحُّ وصف " سقر " بتسويدها الظاهر الجلود مع قوله سبحانه وتعـالى : " لا تُبْقِـي وَلا تَـذَرُ"

---

(١) حاشية الجمل ٤/٤٤٠ ، الكشاف ٤/١٨٣ ، البحر المحيط ٨/٣٧٥ .

(٢) المحرر الوجيز ٥/٣٩٥ ، حاشية الجمل ٤/٤٤٠ ، روح البيان ١٠/٢٣١ ، الدر المصون ٦/٤١٧ .

(٣) تنزيل الشواهد على الكشاف ٤/٤٢٤ .

(٤) الجامع لأحكام القرآن ١٩/٧١ ، الدر المصون ٦/٤١٧ .

(٥) يوسف /٤٣.

(٦) حاشية الجمل ٤/٤٤٠ ، الدر المصون ٦/٤١٧.

الصريح في الإحراق والجواب عن هذا الاعتراض : أنها في أول الملاقاة تسوده ثم تحرقه وتهلكه ، أو الأول حالها مع من دخلها ، وهذا حالها مع من يقرب منها ، ومعلوم أنه إذا قيل لا يحسن وصفها بتسويد ظاهر الجلود بعد وصفها بأنها " لا تبقى ولا تذر " لم يحسن هذا الجواب ، وقد يجاب حينئذ بأن المراد ذكر أوصافها المهولة الفظيعة من غير قصد إلى ترقٍّ من فظيع إلى أفظع ، وكونها لوَّاحة وصف من أوصافها ولعه باعتبار أول الملاقاه ، وقيل الإهلاك وفي ذلك من التفظيع ما فيه لما أن في تسويد الجلود مع قطع النظر عما فيه من الإيلام تشويهاً للخلق ومثله للشخص فهو من قبيل التتميم(١).

والتتميم هنا على أن قوله : " لوَّاحة " لها معنيان : إما أنها مسوِّدة للبشر ، وإما محرقة لها ومهلكة إيَّاها فلا تبقى منها شيئاً حتى إذا هلكوا أعيدوا خلقاً جديداً وهكذا أبداً .

<u>قوله تعالى : "عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ"</u>

<u>النظم البلاغي</u> : قوله : " عليها " الآية خبر رابع عن " سقر " من قوله تعالى : " وما أدراك ما سقر " ؟ ، وقيل : الجملة حال ثالثة أي حال سقر أن عليها تسعة عشر من الملائكة ، أو هي جملة مستأنفة لبيان أمر " سقر " ، وهي جملة مفصولة عما سبق ، و " عليها " خبر مقدم من باب تقديم المسند على المسند إليه للتنبيه على أنه خبر لا صفة ، لأن الخبر أقوى من الصفة في دلالته ، إذ الخبر ركن في الجملة ، والصفة ليست كذلك ، فإذا جعل الشئ

---

(١) روح المعاني ٢٠/١٢٥ ، حاشية الشهاب ٨/٢٧٦ ، غرائب القرآن ٤/٣٢٦٨ ، التتميم هو : أن يؤتى في كلام لا يوهم خلاف المقصود بفضلة لنكتة بيانية كالمبالغة . ينظر : البلاغة فنونها وأفنانها " علم المعاني " /٤٩٨ د/ فضل عباس .

خبراً كان دالاً على شأنه وخطره أكثر من كونه صفة من الصفات ، ولهـذا نراهم يقدّمون المسند ليدرك من أول وهلة أنه خبر لا صفة لأن الصـفة لا تتقدَّم على الموصوف ، ولكن الخبر قد يقدَّم على المبتدأ ، وإذا كان خبراً كان أقوى فى الدلالة على ما يريدون ، ثم إن فى تقديم المسند على المسند إليـه تخصيصاً له به ونفيه عن غيره ، ومعنى " عليها " أى على حراستها " وعلى "هنا استعارة تبعية فى الحروف لأن الاستعلاء هنا استعلاء مجازى بتشـبيه التصرُّف والولاية فى أمرها وشأنها بالاستعلاء على الشئ كما يقولون مثلاً : فلان على الطعام أو على الشرطة أو على بيت المال ، وقد حذف المميَّز أى ملكاً أو صنفاً وهم نقباء الملائكة الموكَّلين بجهنم .

قال الشيخ أبو حيان : التمييز محذوف والمتبادر إلى الذهن أنه ملك ألا ترى العرب وهم الفحصاء كيف فهموا منه أن المراد ملك حين سمعوا ذلك ، وقيل : التمييز المحذوف صنفاً من الملائكة ، وقيل : نقيباً ، ومعنى عليهـا يتولون أمرها وإليهم جماع زبانيتها فالذى يظهر من العدد ومن الآيـة بعـد ذلك، ومن الحديث أن هؤلاء هم النقباء ألا ترى إلى قوله تعالى : - وما يعلم جنود ربك إلا هو • وقوله – عليه الصلاة والسلام – يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمان سبعون ألف ملك يجرُّونها (١) ، وقـد ذكـر المفسِّرون من نعوت هؤلاء الملائكة وخلقهم وقوتّهم وما أقدرهم الله تعـالى عليه من الأفعال ما الله أعلم بصحته (٢).

وقد وضع الأستاذ محى الدين الدرويش : هذه الآية تحت ما يُسمَّى فنَّ الإبهام : " وهو أن يقول المتكلم كلاماً يحتمل معنيين متغـايرين لا يتميـز

---

(١) صحيح مسلم ٤/٢١٨٤ ح رقم ٢٨٤٢ ب فى شدَّة جهنم .
(٢) البحر المحيط ٨/٣٧٥ .

أحدهما عن الآخر والفرق بينه وبين الاشتراك المعيب أن الاشتراك لا يصح إلا فى لفظة مفردة لها مفهومان لا يعلم أيهما أراد المتكلم ، والإبهام لا يكون إلا فى الجمل المؤتلفة المفيدة (١)

وهذا ما يُسميِّه البلاغيون جميعاً بالإيضاح بعد الإبهام : وهو أن يرى المعنى فى صورتين مختلفتين ، أو ليتمكَّن فى النفس فضل تمكُّن ، لأن المعنى إذا أُلقِى مُجمَلاً تشوقَّت نفس السامع إلى معرفته موضَّحاً (٢)

ثم يقول مبيناً الغرض من ورود ذلك : " ومنه – أى الإبهام – نوع آخر يقع لأحد أمرين : أما لامتحان جودة الخاطر وإما لامتحان قوة الإيمان وضعفه وهذه الآية التى نحن بصددها من هذا النوع أى امتحان قوة الإيمان وضعفه فإن معنى – عليها تسعة عشر – مبهم أشدَّ الإبهام ، فإن لقائل أن يقول : ما النكتة فى ذكر هذا العدد ؟(٣)

ثم يقول أيضاً : ولا يقال إن هذا السؤال ساقط فإنه يرد على أى عدد فرض بحيث لو قيل عليها خمسة عشر أو أحد عشر أو عشرون أو غير ذلك ورد السؤال عليه وما كان بهذه المثابة فهو ساقط لأنا نقول : هذا فيما يرد من المخلوق الذى يدخل خبره الخلف وليس بمعصوم من الكذب أما البارئ سبحانه الذى لا يدخل خبره الخلف وإذا أخبر بشئ كان خبره على ما أخبربه فإنه أخبر بعدد لا يجوز أن يقال فيه لو قال غيره ورد عليه السؤال لأنه الحق الواقع الذى لا مريه فيه وإذا كان ذلك كذلك يمكن لقائل أن يقول : ما

---

(١) إعراب القرآن وبيانه ٢٨٢/١٠ .

(٢) الإيضاح مع البغية ١٣٣/٢ ، الطراز ٦٣/٣ ، ١٠١ ، ١١٤ ، المثل السائر ٢٤/٢، مقدمة تفسير ابن النقيب /٣٧٣.

(٣) إعراب القرآن وبيانه ٢٨٢/١٠.

الحكمة فى جمل ملائكة العذاب على هذه العدة ؟ فيكون السؤال وارداً مستحقاً للجواب ليزول هذا الإبهام الذى على ظاهر الكلام (١) ثـم يسـتعرض آراء المفسرين فى ذلك (٢) .

ثم يبيِّن جوابه عن هذا السؤال : الذى أثاره وطرحه بقوله : " إنه لا مرية فى أن أهل النار يزيدون علىَ أهل الجنة بأضـعاف مضـاعفة ، لأن المؤمنين من كلِّ أمة عشر معشار كفارها ، وقد أخبر الله سبحانه وتعالى عن الجنة أن عرضها السموات والأرض فما ظنُّك بطولها والطول من كل شـئ فى معترف العادة أكثر من العرض فأهلها على هذا لا يحصـيهم العـدُّ ولا يحصرهم الحدُّ ، وقد تبيَّن أن أهل النار أضعافهم فهم إلى تجاوز الحـدِّ فـى العدِّ أقرب واقل ما يظن بالملائكة الموكلين بعذابهم أن تكون عِّـدتهم وفـق عدّتهم ليكون بإزاء كلِّ مُعذَّب مُعذِّبٌ وهذا عدد لا نهاية له ولا لكميته . فلما أراد الحقُّ الإخبار بعدَّة هذه الملائكة عدل عن ذكر عددهم الذى هو معلـوم عنده ، وإن تجاوز النهاية بالنسبة إلينا لئلا يخرج الكلام عن حدِّ البلاغة (٣)

وملخص ما قيل فى معنى الآية : " عليها تسعة عشـر " أى خزنتهـا الموكَّلون عليها تسعة عشر ملكاً من الزبانية الأشدَّاء ، فهم موزعون علـى دركات سقر أو جهنم .

---

(١) إعراب القرآن وبيانه ١٠/٢٨٢ .

(٢) التفسير الكبير ٣٠/٢٠٤ ، البحر المحيط ٨/٣٧٥ ، الجامع لأحكام القرآن ١٩/٧٢ ، النيسابورى ٤/٣٢٦٨ ، ٣٢٦٩ .

(٣) إعراب القرآن وبيانه ١٠/٢٨٤ ، ٢٨٥ .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً﴾ الآية :

النظم البلاغى : قوله : " وما جعلنا " الخ جملة استئنافية مسوقة للردُ على أبى الأشدّ بن أسيد بن كَلْدة الجُمَحىّ – روى الطبرى عن ابن عباس وجابر بن زيد – أن أبا جهل لما سمع قوله تعالى : – عليها تسعة عشر – قال لقريش ثكلتكم أمهاتكم إن ابن أبى كبشة يخبركم أن خزنة النار تسعة عشر وأنتم الدُهم – الجماعة الكثيرة – أو الدَّهماء . أفيعجز كلُ عشرة منكم أن يبطشوا برجل من خزنة جهنم ؟ فقال له أبو الأشدّ بن أسيد ، وكان شديد البطش أنا أكفيكم سبعة عشر فاكفونى أنتم اثنين فأنزل الله تعالى – وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة – أى ما جعلناهم رجالاً من جنسكم يطاقون فيأخذ كلُ رجل رجلاً فمن ذا يغلب الملائكة (١) .

وما قاله هذا الرجل إنما يريد به التهكُّم وإظهار فرط قوتّه بين قومه بدليل مقولته فى رواية السُدّى : لا يهولنكم التسعة عشر ، أنا أدفع بمنكبى الأيمن عشرة من الملائكة ، وبمنكبى الأيسر التسعة ، ثم تمرون إلى الجنة يقول ذلك مستهزئاً (٢) .

والمراد بـ " أصحاب النار " هم تسعة عشر ، وفى هذا وضع الظاهر موضع المضمر . **يقول الألوسى** : وكأن ذلك – أى وضع الظاهر موضع المضمر – لما فى هذا الظاهر من الإشارة إلى أنهم المدبِّرون لأمرها القائمون بتعذيب أهلها ما ليس فى المضمير ، وفى ذلك إيذان بأن المراد

---

(١) جامع البيان ١٠١/٢٩ ، البحر المحيط ٣٧٥/٨ ، الجامع لأحكام القرآن ٧٤/١٩ ، روح المعانى ١٢٦/٢٩ ، التحرير والتنوير ٣١٣/٢٠ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٧٤/١٩ .

بسقر النار مطلقاً لا طبقة خاصة منها (١) والاستثناء من عمـــوم الأنـــواع ، والمعنى : وما جعلنا خزنة النار من نوع إلا من نوع الملائكة ليخالفوا جنس المعذبين من الثقلين فلا يرقُّوا لهم ولا يميلوا إليهم فإن المجانسة مظنة الرأفة ولذا بعث الرسول من جنسنا ليرحم بنا ولأنهم أقوى الخلق وأقومهم بحقِّ الله وبالغضب له تعالى وأشدُّهم بأساً فقوتهم أعظم من قوة الإنس والجن (٢) .

وهذا بيان لفساد أقوال قريش وردٌّ لزعمهم ومعتقدهم الباطـــل وظـــنِّهم المردود .

وفى قوله تعالى : " وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة " أسلوب قصر من قبيل قصر الموصوف على الصفة ، وهـــم أصـــحاب النـــار وخزنتهـــا الموكَّلون بها على كونهم من الملائكة ، وطريق القصر النفـــى والاســـتثناء قصرا إضافيا فمع كونهم ملائكة إلا أن لهم صفات أخرى كالقيام بأمر جهنم أو تدبير شأنها أو الآخذ أو كونهم غلاظاً شداداً لا يعصون الله ما أمـــرهم ، والقصر هنا قصر قلب . فقد قلب اعتماد أبى جهل وغيره ممـــا توهَّمـــوه أو تظاهروا بتوهُّمه أن المراد تسعة عشر رجلاً فطمع أن يخلص مـــنهم هـــو وأصحابه بالقوة فقد قال أبو الأشدِّ بن أسيد الجُمَحى : لا يبلغون ثوبى حتـــى أجهضهم عن جهنم ، اى أنحيِّهم (٣) .

---

(١) روح المعانى ١٢٦/٢٩ .

(٢) التفسير الكبير ٢٠٥/٣٠ ، تفسير الخازن ١٧٧/٦ ، حاشية الجمل ٤٤٠/٤ .

(٣) التحرير والتنوير ٣١٤/٢٩ .

قوله : ﴿ ومَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ :

النظم البلاغى : قوله : " وما جعلنا عدتُهم " من باب عطف الخـــاصّ على العامّ ، والخصوص هنا العدد المذكور فى قوله : " تسعة عشر " والعامُّ كونهم ملائكة وهو جمع شامل للصفوة الكرام – عليهم السلام – فقوله تعالى: " وما جعلنا عدَّتهم " تتميم مراد به إبطال توهُّم المشركين حقارة وقلة عـــدد خزنة النار – كما رأينا من محاورة أبى الأشدّ وأبى جهل .

<u>وقد جعل الشيخ الطاهر ابن عاشور</u> : الآية من باب الأسلوب الحكيم ، وهو : " تلقىّ المخاطب بغير ما يترقَّبه ، ويحمل كلامه على غير مـــراده ، وصرفاً لرأيه إلى ما هو أولى به ، أو يلقى السائل بغير مطلوبه ، تنبيهاً على أنه أولى (١) .

<u>وسمَّاه الإمام عبد القاهر</u> : فى الدلائل بالمغالطة (٢) .

ويرى الدكتور محمد أبو موسى : أن هذا الأسلوب – الحكيم – جدير بهذه التسمية – المغالطة – وإن كانت مغالطة أدبية طريفة (٣) . حتى إنه فى فهرسة كتابه " خصائص التراكيب " وَسَمهُ بأنه ضربٌ من الخداع (٤) .

<u>والذى دفعه إلى القول بذلك</u> : ما ذكره العلاَّمـــة الســـكاكى عنـــه – الأسلوب الحكيم – فى قوله : " وان هذا الأسلوب الحكيم لربما صادف المقام فحرَّك من نشاط السامع ما سلبه حكم الوقور وأبرزه فى معرض المسحور ،

---

(١) المفتـــاح /١٥٥، ١٥٦ ، الإيضـــاح ٢/٩٤ ، ٩٥ ت د / خفـــاجى ، الإشـــارات والتنبيهات/٥٧ ، جواهر البلاغة /٣١٩.

(٢) دلائل الإعجاز /١٣٨ ت محمود شاكر .

(٣) خصائص التراكيب /٢١١.

(٤) السابق /٣٠٠.

واستدل بموقف الحجّاج مع الخارجيّ في قولــه : لأحملنَّــك علــى الأدهــم والأشهب (١) .

أما بالنسبة لإجراء الأسلوب الحكيم في الآية : فإن الكلام قد أثار فــي النفوس تساؤلاً عن فائدة جعل خزنة جهنم تسعة عشر ، وهلاَّ كــانوا آلافــاً ليكون مرآهم أشدَّ هولاً على أهل النار ، أو هلاَّ كانوا ملكاً واحداً فإن قــوى الملائكة تأتى كل عمل يسخرها الله له ، فكان جواب هذا السؤال : أن هــذا العدد قد أظهر لأصناف الناس مبلغ فهم الكفار للقرآن ، وإنما حصلت الفتنة من ذكر عددهم في الآية السابقة "تسعة عشر " فقوله : " وما جعلنا عــدَّتهم " تقديره : وما جعلنا ذكر عدتهم إلا فتنة ، ولاستيقان الذين أوتــوا الكتــاب ، وازدياد الذين آمنوا إيماناً ، واضطراب الذين في قلــوبهم مــرض فيظهــر ضلال الضالين واهتداء المهتدين ، فالله جعل عدة خزنة النار تسعة عشــر لحكمة أخرى غير ما ذكر هنا اقتضت ذلك الجعل يعلمها الله (٢)

وقوله : "وما جعلنا عدَّتهم إلا فتنة للذين كفروا " أسلوب قصر طريقــه النفي والاستثناء ، وهو قصرُ إضافيٌ من باب قصر الموصوف على الصفة، وهو عدد الملائكة على كون هذا العدد فتنة يفتن الله بها الكافرين ، وأسلوب القصر هنا أسلوب دقيق لردِّ معتقد هؤلاء الكفرة في كونهم يغلبون الملائكــة أو يعجزونهم ، وذلك أن طريقه وهو النفي والاستثناء لا يقال إلا في الشــئ الذي يجهله المخاطب وينكره فلما كان هؤلاء ينكرون قوة الملائكة وقدرتهم قيل لهم ذلك ، وهو قصر قلب لأن الله تعالى يريد أن يقلب معتقــدهم رأســاً على عقب ويردَّ وهمهم .

---

(١) المفتاح /١٥٦ .

(٢) التحرير والتنوير ٣١٤/٢٩.

والاستثناء مفرَّغ (١) لمفعول ثان لفعل " جعلنا " تقديره : جعلنا عدتهم فتنةَ لا غير ، ولما كانت الفتنة حالاً من أحوال الذين كفروا لم تكن مراداً منها ذاتها بل عروضها للذين كفروا فكانت حالاً لهم، والتقدير : ما جعلنا ذكر عدتهم لعلة وغرض إلا لغرض فتنة الذين ، فانتصب "فتنة " على أنه مفعول ثان لفعل " جعلنا " على الاستثناء المفرَّغ ، وهو قصر قلب للردِّ على الذين كفروا إذ اعتقدوا أن عدتهم أمر هيِّن (٢) ، وفى " عدتَّهم" كناية عن خصوص العدد تسعة عشر سواء كانوا أفراداً أو أصنافاً أو صفوفاً .

<u>وقد بين العلامة الزمخشرى</u> : السرَّ فى جعل فتنة الكافرين بعدَّة الزبانية بقوله : " فإن قلت : قد جعل افتتان الكافرين بعدَّة الزبانية سبباً لاستيقان أهل الكتاب وزيادة إيمان المؤمنين واستهزاء الكافرين والمنافقين فما وجه صحة ذلك ؟

قلت : ما جعل افتتانهم بالعدة سبباً بالعدة سبباً لذلك وإنما العدة نفسها هى التى جعلت سبباً – وذلك أن المراد بقوله – وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا – وما جعلنا عدَّتهم إلا تسعة عشر . فوضع – فتنة للذين كفروا – موضع تسعة عشر ، لأن حال هذه العدة الناقصة واحداً من عقد العشرين أن يفتتن بها من لا يؤمن بالله وبحكمته ويعترض ويستهزئ ولا يذعن إذعان المؤمن وإن خفى عليه وجه الحكمة ؟، كأنه قيل : ولقد جعلنا عدتهم عدة من

---

(١) الاستثناء المفرَّغ هو : الذى لم يذكر فيه المستثنى منه ويشترط فيه أن يتقدَّم الكلام نفى " أو شبهه وهو النهى والاستفهام والمستثنى فى هذا الأسلوب يعرب على حسب العوامل السابقة عليه "

ينظر : فيه شرح ابن عقيل ٥٤٨/١ ، ٥٤٩ ت الشيخ محيى الدين ، شرح التصريح على التوضيح ٣٥٦/١ ت الشيخ خالد الأزهرى .

(٢) التحرير والتنوير ٣١٤/٢٩ ، ٣١٥ .

شأنها أن يفتتن بها لأجل استيقان المؤمنين وحيرة الكافرين واستيقان أهل الكتاب لأن عدتهم تسعة عشر فى الكتابين ،فإذا سمعوا بمثلها فى القرآن أيقنوا أنه منزّل من الله وازدياد المؤمنين إيماناً لتصديقهم بذلك كما صدّقوا سائر ما أنزل ولما رأوا من تسليم أهل الكتب وتصديقهم انه كذلك (١)

و"عدتَّهم" منصوب مفعول به َأول لـــ " جعلنا " و " فتنة " مفعول به ثان على حذف مضاف أى سبب فتنة ، وليست مفعولاً لأجله و " الذين " جار ومجرور متعلقان بـ " فتنة " وجملة " كفروا " صلة الموصول .

ومن المفسّرين من جعل قوله : وما جعلنا عدتَّهم إلا فتنة " من باب المجاز للتعبير بالأثر عن المؤثر .فالأثر هنا عبارة عن الفتنة والمؤثِّر خصوص التسعة عشر لأنه سبب لافتتانهم بما ذكر تنبيهاً على أنه لا ينفكُّ منه فهما متلازمان كالشئ الواحد يعبَّر باسم أحدهما عن الأخر لأنه المتبادر منه (٢) . وهذا ما يُسمَّى بإطلاق السبب وإرادة المسبَّب عنه فى باب المجاز المرسل ، واللام فى " للذين كفروا " للاختصاص لأن الذين كفروا هم الذين سخروا من هذا العدد ولم يدركوا – لجهلهم وعنادهم – مغزى الحكمة الإلهية فيه . بل نراهم يفسرّون الجعل فى الآية بالقول .

<u>يقول الشيخ زادة – رحمه الله</u> – : قوله – أى البيضاوى – ولعل المراد تفسير الجعل بالقول – جواب عما يقال : كيف يصحُّ جعلهم فى نفس الأمر على هذا القدر معللاً لاستيقان أهل الكتاب وازدياد المؤمنين إيماناً واستبعاد أهل الشك والنفاق وليس إيجادهم وإحداثهم تسعة عشر سبباً لشئ

---

(١) الكشاف ١٨٤/٤ ، الإنصاف عليه ، البحر المحيط ٣٧٦/٨ . .

(٢) تفسير االبيضاوى ٣٩٩/٥ ، حاشية الشهاب عليه ٢٧٧/٨ ، حاشية الشيخ زاده عليه أيضاً ٥٧٤/٤ .

من ذلك وإنما السبب ما ذكر من الأمور هو الإخبار عن عددهم بأنه تسعة عشر (١) ، ثم يبيِّن الجواب عن ذلك بقوله : " إن الجعل يطلق على معنيين أحدهما : جعل الشئ متصفاً بصفة فى نفس الأمر ، وثانيهما : الإخبار باتصافه بها ، ويقال له الجعل بالقول كما فى قوله تعالى :- ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا﴾ (٢) ولعل المراد بالجعل المذكور فى الآية الجعل بالمعنى الثانى ، والمعنى : وما جعلنا عدتهم بالإخبار عنها إلا عدداً يلزم افتتان الكفار به لاستيقان أهل الكتاب وازدياد المؤمنين إيماناً واستبعاد أهل الشك والنفاق إياه فحينئذ يظهر وجه السببية ، وعبِّرَ عن الإخبار عن العدد بالجعل للمشاكلة لوقوعه فى صحبة قوله : - وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة – كقوله : قلت اطبخوا لى جُبَّة وقميصا (٣)

فالمشاكلة هنا مشاكلة تحقيقية لوقوع اللفظ فى صحبة غيره حقيقة إذ اللفظ الذى شوكل ونسج على هيئته وهو الجعل موجود فى الكلام على حقيقته، وإطلاق الجعل على القول من قبيل الاستعارة .

قوله تعالى : ﴿لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا ﴾

النظم البلاغى : قوله : " ليستيقن " تعليل ثان لقوله : وما جعلنا عدتَّهم، فاللام للتعليل ، والفعل " يستيقن " متعلق بالفعل "جعلنا " وليس متعلقاً

---

(١) حاشية الشيخ زاده على البيضاوى ٥٧٤/٤ .

(٢) الزخرف /١٩ .

(٣) عجز بيت صدره : قالوا اقترح شيئاً نجد لك طبخه وهو لأحمد بن محمد الأنطاكى المعروف بأبى الرقعمق معاهد التنصيص ٢٥٢/٢ ت الشيخ محيى الدين ، الإيضاح ٢٧/٦ ت د / خفاجى ، حاشية الشيخ زاده ٥٧٤/٤ ، تفسير القاسمى ٢١٣/١٦ ، حاشية الشهاب ٢٧٧/٨ .

بـــ " فتنة ، لأن الفتنة ليست معلولة للاستيقان بل المعلول هو جعل العـدَّة سبباً لفتنة الذين أوتوا الكتاب ، وقيل : إنه متعلق مضمر تقديره : فعلنا ذلك ليستيقن الذين أوتوا الكتاب .

وتعريف المسند إليه باسم الموصول "الذين " لزيادة تقريــر الغــرض المسوق له الكلام وهو استيقان أهل الكتاب من صدق محمد – ﷺ – وأن هذا القرآن من عند الله ، إذ يجدون هذا العدد فى كتبهم المنزَّلة .

ويرى الشيخ ابن المنير أن : الاستيقان راجع إلى ما قبل الاستثناء وأن هذا الرأى – من وجهة نظره – أفضل من رأى الزمخشرى فيقول : ويجوز أن يكون – ليستيقن – راجعاً إلى ما قبل الاستثناء كأنه قيل : جعلنا عــدتهم سبباً لفتنة الكافرين وسبباً ليقين المؤمنين ، وهذا الوجه أقــرب ممـــا ذكــره الزمخشرى ، وإنما ألجأه – أى الزمخشرى – إليه اعتقاد أن الله تعــالى مـــا فتنهم ولكنهم فتنوا أنفسهم بناءً على قاعدة التبعيض فـــى المشـــيئة وبئســت القاعدة (١) .

والاستيقان هو قوَّة اليقين فى التحقُّق من الشئ والتثُّبت منه ودرايتـــه ، والسين والتاء من الفعل للمبالغة فكما قيل : الزيادة فى المبنـــى تــدلُّ علـــى الزيادة فى المعنى ، والمراد : ليتحقَّق هؤلاء ويستيقنوا صدق القرآن حيــث يجدون هذا العدد مصدَّقاً لما فى كتبهم .

والمراد بـــ " الذين أوتوا الكتاب " هم " اليهود والنصارى لموافقة مـــا نزل من القرآن بأن عدَّة خزنة جهنم تسعة عشر لما عنـــدهم . قـــال قتـــادة والضحَّاك ومجاهد وغيرهم ، والمعنى : أن الله جعل عدَّة الخزنة هذه العـــدَّة

---

(١) الإنصاف على الكشاف ٤/١٨٤ ، روح المعانى ٢٩/١٢٧ .

ليحصل اليقين لليهود والنصارى بنبوة محمد – ﷺ – لموافقة ما فى القــرآن لما فى كتبهم (١) .

والاستيقان كما يقول الشيخ الطاهر ابن عاشور : من شأنه أن يعقبه الإيمان إذا صادف عقلا بريئا من عوارض الكفر وقع لعبد الله بن ســلام ، وقد لا يعقبه الإيمان لمكابرة أو حسد أو إشفاق من فوات جاه أو مال كما كان شأن كثير من اليهود الذين قال الله فيهم – يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٢) – ولذلك اقتصرت الآيــة علــى حصول الاستيقان لهم (٣) .

وفى قوله : " الذين أوتوا الكتاب " كناية عن موصــوف هــم اليهــود والنصارى ومنشأ الإيقان عندهم أن هذا العدد المذكور فى القرآن مذكور فى التوراة والإنجيل – قبل التحريف – فوروده فى القرآن يحدث عندهم اليقــين بأن القرآن وحى من عند الله لمطابقة معناه معانى كتبهم (٤) .

وقوله : " ويزاد الذين آمنوا إيماناً " معطوف على قولــه : " ليســتيقن الذين أوتوا الكتاب " موصول به لا تفاقهما فى الخبرية ، وتعريف المسند إليه أيضاً بالاسم الموصول زيادة فى تقرير الغرض المسوق له الكلام وهو بيان الحكمة فى عدة الملائكة وكونهم فتنة لمن كفر ، وهــذه خاصــية ثالثــة أو غرض ثالث والمراد يزداد إيمانهم بما تضمنته الآيات مــن عــدتهم فــإنهم يصدقون بكلٍ ما جاء به القرآن فهذا زيادة فى إيمانهم التفصــيلىّ أو إذا رأوا

---

(١) فتح القدير ٥/٤٠٤ .

(٢) البقرة /١٤٦ .

(٣) التحرير والتنوير ٢٩/٣١٥.

(٤) تفسير الخازن وبهامشه البغوى ٦/١٧٨ ، التفسير البلاغى للاستفهام ٤/٣١٤ .

تصديق أهل الكتاب زاد إيمانهم ، ولذا قال المفسِّرون : هو فى الأول زيـــادة فى الكم وفى هذا زيادة فى الكيف . " والازدياد بحسب الكمية لازدياد متعلقة فإن الإيمان قد كان يزداد به يوماً فيوماً فى زمان الوحى بحسب ازدياد مـــا يجب الإيمان به فإن من آمن بجميع ما جاء من عند الله قبل نزول ما يـــدل على عدد الزبانية إذا نزل عليهم قوله تعالى : - تسعة عشر - فـــآمنوا بـــه أيضاً فلا شكَّ أنه يزداد إيمانهم بحسب الكمية لازدياد متعلقه - وعلى الثانى: يكون المراد بالازدياد ازدياد يقينهم قوة بتصديق أهل الكتاب بـــه وبموافقـــة كتابهم لكتاب أولئك كما استيقن أولئك لموافقة كتابهم لكتابنا (١)

قوله تعالى : ﴿لا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّـــذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلا﴾

النظم البلاغى : قوله : " ولا يرتاب معطوف على ما سبق ، وهو تأكيد للاستيقان وزيادة الإيمان ، وهذا جواب عما يقال لما أثبت الاستيقان لأهـــل الكتاب وأثبت زيادة الإيمان للمؤمنين فما الفائدة فى قولـــه بعـــد ذلـــك " ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون " ؟ وتقدير الجواب الأول كونه تأكيداً ، وتقرير الجواب الثانى أن المتيقن قد يعتريه شكٌ وارتياب بسبب غفلته عـــن مقدمة من مقدمات دليله أو طريان ما يتوهَّم كونه واقعاً أو معارضـــاً لتلـــك المقدمة فثبوت اليقين فى بعض الأحوال لا ينافى طريان الارتياب بعد ذلـــك فالمقصود من ذكر هذا الكلام بعد ذلك بيان أن المراد من الاستيقان والازدياد المذكورين قبل أن يكونا بحيث لا يطرأ عليهما شكٌ وارتياب أصلاً .

ومن هنا نرى أن قوله تعالى : " ولا يرتـــاب الـــذين أوتـــوا الكتـــاب والمؤمنون " توكيد للإيقان عند أهل الكتاب ، وتقويةٍ لزيادة الإيمـــان عنـــد

---

(١) حاشية الشيخ زاده على البيضاوى ٤/٥٧٥ .

المؤمنين ، وهو توكيد معنى لا توكيد لفظ ، وأُخِّر نفى الارتياب على الإيقان والإيمان لأنهما سبب فيه ، ورتبه السبب مقدَّمة على رتبة المسبَّب (١) .

وجاء قوله :" ولا يرتاب " إلخ بعد ما ذكر لينتفى عنهم الريب فلا تعتريهم شبهة من بعد علمه لأن ذلك إيقان عن دليل ، وإن كان الفريقان فى العمل بعلمهم متفاوتين ، لأن المؤمنين علموا وعملوا ، والذين أوتوا الكتاب علموا وعاندوا فكان علمهم حجَّة عليهم وحسرة فى نفوسهم .

قال العلاَّمة الزمخشرى : فإن قلت : لم قال ": – ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون – والاستيقان وازدياد الإيمان دلاً على انتقاء الارتياب ؟ قلت لأنه إذا جمع لهم إثبات اليقين ونفى الشك كان آكد وأبلغ لوصفهم بسكون النفس وثلج الصدر ، ولأن فيه تعريضاً بحال من عداهم كأنه قال : ولتخالف حالهم حال الشاكِّين المرتابين من النفاق والكفر (٢) ، والمراد بالذين أوتوا الكتاب والمؤمنين أولاً اليهود ، والمراد بالذين أوتوا الكتاب ثانياً هم النصارى ، والمؤمنون المذكورون بعدهم من غير اليهود بل من هذه الأمة ، فاندفع ما يقال إن فى الآية تكراراً وبعبارة أظهر أن يقال : إن المراد بـ " الذين أوتوا الكتاب " أولاً اليهود وبالمؤمنين أولاً من آمن من اليهود ، والمراد بالذين أوتوا الكتاب ثانياً من غير اليهود هم النصارى ، وبالمؤمنين من غيرهم بقية المسلمين الأُول (٣)

---

(١) التفسير البلاغى للاستفهام ٣١٤/٤ .

(٢) الكشاف ١٨٥/٤ ، تفسير الخازن وبهامشه البغوى ١٧٨/٦ ، التسهيل ١٦١/٤، ١٦٢، النيسابورى ٣٢٧٠/٤ ، التحرير والتنوير ٣١٧/٢٩ .

(٣) حاشية الجمل ٤٤١/٤ ، حاشية الصاوى ٢٥٣/٤.

والتعبير عن الذين آمنوا فى قوله : " والمؤمنون " باسم الفاعل بعد ذكرهم بالموصول فى قوله : " ويزداد الذين آمنوا إيماناً " والصلة الفعلية المنبئة عن الحدوث للإيذان بثباتهم على الإيمان بعد ازدياده ورسوخهم فى ذلك ومداومتهم عليه فلا يفارقونه بشكٍّ أو ارتياب .

قال الألوسى : " وإنما لم ينظم المؤمنون فى سلك أهل الكتاب فى نفى الارتياب حيث لم يقل : ولا يرتابوا للتنبيه على تباين النفيين حالاً فإن انتفاء الارتياب من أهل الكتاب مقارن لما ينافيه من الجحود ومن المؤمنين مقارن لما يقتضيه من الإيمان وكم بينهما ، وقيل :: إنما لم يقل : ولا يرتابوا بل قيل ولا يرتاب إلخ . للتنصيص على تأكيد الأمرين لاحتمال عود الضمير فى ذلك على المؤمنين فقط (١)

وقوله : " وليقول الذين فى قلوبهم مرض والكافرون " معطوف على ما سبق وهو الغرض الخامس من الأغراض التى سيقت لبيان عدة الملائكة فى كونهم " تسعة عشر " بعد نفى الارتياب ، وهو تعليل لهذا العدد .

و " الذين فى قلوبهم مرض " كناية عن موصوف وهم المنافقون الذين وجدوا بعد ذلك فى المدينة ، ويكون هذا من باب الإخبار بالغيوب معجزة له - ﷺ - وإما أن يكون عن أهل مكة لأن فيهم من هو شاكٌّ ومنهم من هو قاطع بالكذب .

قال ابن الجوزى : " وفيه ثلاثة أقوال : أحدها : أنه النفاق . ذكره الأكثرون ، والثانى : أنه الشك . قاله مقاتل ، وزعم أنهم يهود أهل المدينة ، وعنده أن هذه الآية مدنية ، والثالث : أنه الخلاف . قاله الحسين بن الفضل ، وقال : لم يكن بمكة نفاق وهذه مكية . فأما " الكافرون " فهم مشركو

---

(١) روح المعانى ١٢٧/٢٩ ، أبو السعود ٦٠/٩ .

العرب(١) ، والتعبير عن هؤلاء سواء كانوا المنافقين أو أهل مكة بالاسم الموصول " الذين " وتعريفهم به لا ستهجان ذكرهم ، وعدم التصريح بأسمائهم ، ولعدم تمييز نوع معين . فكان التعريف بالاسم الموصول شاملاً للنوعين معاً ، وتقديم قوله : " في قلوبهم " وهو المسند على المسند إليه " مرض " للتنبيه على كونه خبراً لا صفة ، ودليل على تخصيص قلوبهم به وهو دليل على فساد المعتقد لأنه إذا استقرَّ في قلوبهم هكذا طبعت نفوسهم عليه فدلَّ على خسارتهم .

والمرض في الآية استعارة : فإن كان هذا المرض خاصاً بالمنافقين فقد استعير لفساد القلوب بالكفر المستقِّر فيها أو المكنون فيها استعارة تصريحية أصلية لجريانها في اسم معنى " المصدر " ، وإن كان خاصاً بالكافرين فقد استعير للشكِّ والريب ، وهو استعارة تصريحية أصلية أيضاً ، والجامع بين طرفي الاستعارة ما يترتب على كلٍّ منهما من الضرَّر الحاصل في البدن والدين . فالمرض آفة حاصلة في الإدراك كسوء الاعتقاد والكفر ، أو هيئة باعثة على ارتكاب الرذائل كالغلِّ والحسد والبغض ، أو مانعة عن اكتساب الفضائل كالضعف والجبن والخور ، ومجئ " مرض " وهو المسند إليه نكرة للتحقير والبشاعة ، والمقام يدل على ذلك – كما رأينا – .

وهناك مزيد دقة في عطف هذا الجزء من الآية على ما سبق وكونه غرضاً أو علة في عدة الخزنة . نبَّه عليه العلاَّمة الزمخشري بقوله : " فإن قلت : قد علل جعلهم تسعة عشر بالاستيقان وانتفاء الارتياب وقول المنافقين والكافرين ما قالوا فهب أن الاستيقان وانتفاء الارتياب يصحُّ أن يكونا غرضين ، فكيف صحَّ أن يكون قول المنافقين والكافرين غرضاً ؟ قلت :

---

(١) زاد المسير في علم التفسير ١٥١/٨ . .

أفادت اللام معنى العلة والسبب ، ولا يجب فى العلة أن تكون غرضـــاً ، ألا ترى إلى قولك خرجت من البلد لمخافة الشر فقـــد جعلـــت المخافـــة علـــة لخروجك وما هى بغرضك (١) .

و " الكافرون " هم المصرُّون على التكذيب واللدد والجدل ، والتعريف فيها للعهد والمراد : الكافرون المعهودون بذلك لتقدُّم الحـــديث عـــنهم فـــى مجادلتهم وعنادهم وأنهم بقدرة على عجز الملائكة كما فى قصة أبى الأشـــدِّ وأبى جهل كما صرَّح به قوله تعالى : " وما جعلنا عـــدتهم إلا فتنـــة للـــذين كفروا " والعهد هنا صريح حضوريُّ محكوم عليه بهذا الحكم وهو الوصـــف بالكفر لتقدُّمه صراحة .

وقُدِّم " الذين فى قلوبهم مرض " على " الكافرين " لخطورة المقـــدَّم – وهم المنافقون – إذ هم أشدُّ خطراً من الكافرين لعدم علم أحد بمخبرهم فهم يظهرون الإيمان والولاء ويبطنون الغلَّ والكفر والحسد ، والتـــواء أمـــرهم وسوء دواخلهم ، أما الكافر فأمره بيِّن وحاله معلوم لكل أحد .

وقوله : " ماذا أراد الله بهذا مثلاً ؟ استفهام فى محل نصب مفعول مقدَّم لـــ " أراد " و " بهذا " جارٌّ ومجرور متعلقان بالفعل " أراد ، " مثلاً" حال من – هنا أى حال كونه مشابهاً للمثل ، أو أن – ما – اسم استفهام مبتدأ و – ذا – اسم موصول خبره ، و " أراد الله " صلة للموصول وجملة " ماذا أراد " ؟ إلخ مقول القول " (٢)

والاستفهام كما يقول المفسِّرون : للإنكار والاستغراب ، وهو لاستبعاد أن يكون هذا من عند الله بناء على أنه لو كان من عنده لما جـــاء ناقصـــاً ،

---

(١) الكشاف ٤/١٨٥ .

(٢) إعراب القرآن وبيانه ١٠/٢٨١ .

وإفراد قولهم هذا بالتعليل مع كونه من باب فتنتهم للإشعار باستقلاله فى الشناعة ." وأداة الاستفهام – ماذا – للمبالغة فى الإنكار والاستغراب ، لذلك أوثرت على – ما – وحدها وذلك بدلالة المقام والاستقراء ، فإن مواضع مجئ – ماذا – فى النظم الحكيم يدلُّ على إرادة هذه المبالغة (١)

والمعنى المراد من قولهم ذلك بصيغة الاستفهام : ما الذى أراده الله بها وهى عدَّة الملائكة حال كونه مثلاً لا حقيقة لغرابته لأن هذا العدد أمر غريب لم تسعه عقولنا ؟ .

قال ابن عطية : " جاروا وضلُّوا ولم يهتدوا لقصد الحق فجعلوا يستفهم بعضهم بعضاً عن مراد الله تعالى بهذا المثل استبعاداً أن يكون هذا من عند الله (٢) ونسبهم ذلك إلى كونه مراد الله تعالى إما من باب الحكاية أى حكاية قولهم ما أريد ونحو ذلك أو من المحكى ونسبوه لله استهزاءً وتهكماً منهم إذ إن دأبهم وديدنهم إنكار أن يكون القرآن فى جملته لا المثل المذكور فقط وحياً من عند الله تعالى ، وعلى هذا يكون نسبهم وإسنادهم ذلك إليه سبحانه وتعالى من باب المجاز العقلىّ حيث أسند فيه الفعل وهو " أراد الله " إلى غير فاعله الحقيقىّ على حسب اعتقادهم وزعمهم .

وقد جعل الشيخ الطاهر ابن عاشور : هذا الاستفهام من باب الكناية بنفى إرادة الله تعالى العدد عن إنكار أن يكون الله تعالى قال ذلك فيقول : " والأمر الذى أراده الله بهذا الكلام فى حال أنه مثل ، والمعنى : لم يرد الله هذا العدد الممثَّل به وقد كنى بنفى إرادة الله العدد عن أن الله قال ذلك ، والمعنى : لم يرد الله العدد الممثَّل به فكنوا بنفى إرادة الله وصف هذا العدد

---

(١) التفسير البلاغى للاستفهام ٤/٣١٥.

(٢) المحرر الوجيز ٥/٣٩٦ .

عن تكذيبهم أن يكون هذا العدد موافقاً للواقع لأنهم ينفون فائدته وإنما أرادوا تكذيب أن يكون هذا وحياً من عند الله (١) .

وقد سمُّوا ما ذكروه "مثلاً" على سبيل الاستعارة حيث شبهوه بالمثل المضروب الذى هو القول السائر فى الغرابة حيث لم يكن عقدا تاما كعشرين مثلاً أو ثلاثين وكان ناقصاً عنه بواحد، ويقال فى هذه الاستعارة : أنهم شبَّهوا العدد الغريب – من وجهة نظرهم – بالمثل السائر بجامع الغرابة والاشتهار على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية ، والغرض من هذه الاستعارة التهكُّم والاستهزاء أو التنُّدر والاستخفاف ، فاستعيرت كلمة " مثل " للعدد المذكور سابقاً وهو تسعة عشر .

<u>قال جار الله الزمخشرى</u> : " فإن قلت : لِمَ سمُّوه مثلاً ؟ قلت : هو استعارة من المثل المضروب لأنه مما غرب من الكلام وبدع استغراباً منهم لهذا العدد واستبداعاً له ، والمعنى : أى شئ أراد الله بهذا العدد العجيب ، وأى غرض قصد فى أن جعل الملائكة تسعة عشر لا عشرين سواء ، ومرادهم إنكاره من أصله وأنه ليس من عند الله ، وأنه لو كان من عند الله لما جاء بهذا العدد الناقص (٢).

<u>قوله تعالى</u> : ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء ﴾ .

<u>النظم البلاغى</u> : قوله : " كذلك " فى محل نصب صفة لمصدر محذوف، وهو إشارة إلى ما قبله من معنى الإضلال والهداية ، وأصل تقدير الكلام : يضلُّ الله من يشاء إضلالاً أو إضلاله ويهدى من يشاء هداية أو هدايته فحذف المصدر وأقيم وصفه مقامه ، ثم قُدِّم على الفعل لإفادة القصر

---

(١) التحرير والتنوير ٣١٧/١٩.

(٢) الكشاف ١٨٥/٤ ، التفسير الكبير ٢٠٨/٣٠ .

فصار النظم مثل ذلك الإضلال وتلك الهداية يضلُّ الله تعالى من يشاء إضلاله لصرف اختياره حسب استعداده السيئ إلى جانب الضلال عند مشاهدته لآيات الله تعالى الناطقة بالهدى ، ويهدى من يشاء هدايته لصرف اختياره حسب استعداده الحسن عند مشاهدة تلك الآيات إلى جانب الهدى لا إضلالاً وهداية أدنى منهما (١)

وقد وضَّح الطبرسى التقدير فى الآية بقوله : " أى مثل ما جعلنا خزنة أصحاب النار ملائكة ذوى عدد محنة واختباراً نكلف الخلق ليظهر الضلال والهدى ، وأضافهما إلى نفسه لأن سبب التكليف هو من جهته ، وقيل : يضل عن طريق الجنة والثواب من يشاء ويهدى من يشاء إليه (٢) .

وللدكتور المطعنى رأىٌ وجيهٌ فى ذلك فيقول : "الجملة أحرى أن تكون استئنافاً مسوقاً لإبطال مزاعمهم وسخريتهم ، وهى جملة تشبيهية المشبه به اسم الإشارة – ذلك – والمشبه إضلال من يشاء الله إضلاله ، وهداية من يشاء الله هدايته ، والمعنى : مثل ذلك الإضلال الذى حكيناه عن الذين كفروا، ويضلُّ الله من كان مثلهم فى الجهل والعناد ، ومثل تلك الهداية التى هدى الله بها المؤمنين يهدى الله مَنْ أقبل على الحقِّ وأذعن له ، ووجه الشبه هو قوة الظهور والتمكُّن ، وتقديم الإضلال على الهداية للإيماء بأن قول الذين فى قلوبهم مرض والكافرون هو الإضلال المبين (٣) ثم يقول أيضاً(٤): " وفى العبارة إيجاز بالحذف ، وحيث حذف مفعول المشيئة فى

---

(١) أبو السعود ٦٠/٩ ، روح المعانى ١٢٨/٢٩ ، روح البيان للبروسوى ٢٣٥/١٠ .

(٢) مجمع البيان ١١٣/٢٩ .

(٣) التفسير البلاغى للاستفهام ٣١٥/٤ ، ٣١٦ .

(٤) السابق ٣١٦/٤ .

الموضعين للعلم به والتقدير : يضلُّ الله من يشاء إضلاله ، ويهدى الله من يشاء هدايته ، وهو حذف مطرد مع فعل المشيئة إلا إذا كان المفعول غريباً وليس فى الكلام ما يدلُّ عليه فيجب ذكره كقول الشاعر . (١)

ولو شئت أن أبكى دماً لبكيته * * عليه ، ولكن ساحة الصبر أوسع

وهذا البيت كما قال محقِّقُ الإيضاح : " الشاهد فيه ذكر المفعول – أن أبكى دماً – فإن تعلُّق فعل المشيئة ببكاء الدم غريب فذكره ليتقرَّر فى نفس السامع ويأنس به (٢) .

وقد بيَّن سماحة الشيخ الطاهر ابن عاشور : الغرض من التشبيه فى الآية بقوله : " والغرض من هذا التشبيه تقريب المعنى المعقول وهو تصرُّف الله تعالى فى خلق أسباب الأحوال العارضة للبشر إلى المعنى المحسوس المعروف فى واقعة الحال ، تعليماً للمسلمين وتنبيهاً للنظر فى تحصيل ما ينفع نفوسهم ، ووجه الشبه هو السببية فى اهتداء من يهتدى وضلال من يضل ، فى أن كلاًّ من المشبه والمشبه به جعله الله سبباً وإرادة لحكمة اقتضاها علمه تعالى فتفاوت الناس فى مدى إفهامهم فيه من مهتد ومرتابٍ مختلفِ المرتبة فى ريبه ، ومكابرٍ كافرٍ وسيئ فَهْمٍ كافرٍ فانطوى التشبيه من قوله – كذلك – على أحوال وصور كثيرة تظهر فى الخارج (٣) .

---

(١) البيت لأبى إسحاق الخريمى يرثى عثمان بن عامر بن عمارة معاهد التنصيص ٢٥٤/١، الكامل ٣٠٣/٢ ، الدلائل /١٦٤ ت الشيخ شاكر ، الإيضاح ١٥٥/٢ ، التبيان للطيبى /١٠٩ .

(٢) الإيضاح ١٥٥/٢ ت د خفاجى .

(٣) التحرير والتنوير ٣١٨/٢٠.

لِمَ أُسْنِدَ الإضلالُ إلى الله تعالى ؟ قيل : إنه أُسْنِدِ إليه تعالى إضلالُ من يشاء لأنه سبحانه مُوجِدُ الأسباب الأصلية فى الطبائع ، وارتباط أحوال العالم بعضها ببعض ، ودعوة الأنبياء- عليهم الصلاة والسلام - والصالحين إلى الخير التى أدَّت بالضَّالين إلى ضلالهم وبالمهتدين إلى هداهم ، وكل من خلق الله تعالى فما على النفوس الطالبة الخير المريدة للنجاة إلا التعرُّض لأحد الأمرين بعد التجرُّد والتدبُّر ، ولهذا قال تعالى : -﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ (١) - ومشيئته عز وجل ذلك هى تعلق علمه بسلوك المهتدين والضَّالين .

قال العلاَّمة الزمخشرى فى بيان ذلك : " يعنى يفعل فعلاً حسناً مبنياً على الحكمة والصواب ، فيراه المؤمنون حكمة ويذعنون له لا عتقادهم أن أفعال الله كلها حسنة وحكمة فيزيدهم إيماناً ، وينكره الكافرون ، ويشكُّون فيه فيزيدهم كفراً وضلالاً (٢)

وما أحسن بيان ما ذكرنا ما فسَّر به الإمام النسفى ذلك بقوله : " يعنى إضلال المنافقين والمشركين حتى قالوا ما قالوا ، وهدى المؤمنين لتصديقه ورؤية الحكمة فى ذلك - يضل الله من يشاء - من عباده وهو الذى علم منه اختيار الضلال - ويهدى من يشاء - وهو الذى علم منه اختيار الاهتداء ، وفيه دليل على خلق الأفعال ووصف الله بالهداية والإضلال (٣) ، فهو سبحانه له الحكمة البالغة والحجَّة الدَّامغة كما أضلَّ أبا جهل وأصحابه وأبقاهم على ضلالهم ، وهدى المؤمنين ونفع بهم كعمر وخالد وعمرو إلخ .

---

(١) البقرة /٢٨٦.

(٢) الكشاف ٤/١٨٥ .

(٣) تفسير النسفى /١٢٩٩ .

وقُدِّم وصفُ المفعول المطلق " يضلُّ اللهُ مَنْ يشاء ويهدئ للاهتمام بهذا التشبيه لما يرشد إليه من تفصيل عند التدبُّر فيه ، وحصل من تقديمه محسِّنُ الجمع ثم التقسيم (١) . إذ جاء تقسيمه بقوله : " يضلُّ من يشاء ويهدى من يشاء (٢) ، وبين الفعلين : " يضلُّ " و " يهدى " طباقُ لفظيٌّ حقيقيٌّ من الطباق بين الأفعال .

قوله تعالى : ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلا هُوَ وَمَا هِيَ إِلا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ﴾

النظم البلاغي : قوله : " وما يعلم " جملة مستأنفة جاءت جواباً وردّاً على أبى جهل لتهكُّمه واستهزائه فى قوله : أما لربِّ محمد أعوانُ إلا تسعة عشر ، والمراد : ما يعلم جنود ربّك من كثرتها أحدُ إلا هو ، ولم يجعل خزنة النار تسعة عشر لقلة جنوده ، وأن المراد من بيان كثرتها التنبيه على أنه تعالى لا يعسر عليه تتميم الخزنة عشرين ، ولكن له تعالى فى اختيار هذا العدد حكمة لا يعلمها إلا هو ، وكون خزنة النار تسعة عشر لا ينافى أن يكون لهم من الأعوان ما لا يعلم عددهم إلا الله ، وقوله : " جنود ربِّك " مفعول مقدَّم واجب التقديم لحصر الفاعل وقصره عليه ، وتخصيصه به ، وهذه الجزئية من الآية تأخذ حكم التذييل المتمِّم لردِّه تعالى على المستهزئين بعدَّة الخزنة ، والجنود : جمع جند يقال للعسكر وهو اسم لجماعة الجيش ، وهو هنا استعارة تصريحية استعير لجماعات الملائكة التى خلقها الله تعالى لتنفيذ أمره ، والجامع تنفيذ الأوامر والمهمَّات المطلوبة منها فى كل .

---

(١) الجمع : هو أن يجمع بين متعدَّد تحت حكم واحد ، والتقسيم : هو أن يذكر متعدّد ثم يضاف إلى كل من أفراده ماله على جهة التعيين ، والجمع مع التقسيم أن يجمع متعدَّداً ثم يقسم ثم يجمع جواهر البلاغة ٣١٠/٣١٢.

(٢) التحرير والتنوير ٢٩/٣١٩ .

و " إضافة ربٍّ إلى ضمير النبى – ﷺ – إضافة تشريف ، وتعـريض بأن من شأن تلك الجنود أن بعضها يكون به نصر النبى – ﷺ – ونفى العلم هنا نفى للعلم التفصيلى بأعدادها وصفاتها وخصائصها بقرينة المقام فإن العلم بعدد خزنة جهنم قد حصل للناس بإعلام من الله لكنهم لا يعلمون مـا وراء ذلك (١)

وقوله : " وما يعلم جنود ربك إلاَّ هو " أسلوب قصر من باب قصـر الصفة على الموصوف ، وهى صفة علمه تعالى بملائكته على ذاته سبحانه قصراً حقيقياً طريقة النفى والاستثناء ، وكونه قصراً حقيقياً لأن العلم بعـدد الملائكة خاصٌّ به سبحانه وتعالى لا يتعَّداه إلى غيـره ، واسـتعمال النفـى والاستثناء هنا لأن هذا العدد ينكره ويجهله أمثال أبى جهل ، وهو قصر قلب لأنه قلب لمعتقدَ أبى جهل رأساً على عقب ، فقوله : " وما يعلم " اسـتئناف مبطل لاحتجاجهم على خصوص العدد المذكور " تسعة عشر " ولدفع تـوهُّم أن جنود اله قلة ، وفيه كناية عن كثرة جنود الله وعظمتهم وقوة بطشـهم ، وإيثار المضارع – يعلم – ليشمل النفى كلَّ الأوقات (٢)

يقول القاسمى : " يجوز أن تكون الجملة تأييداً لكون ما تقدَّم مـثلاً . أى أن المؤمنين يستيقنون بأن عدَّتهم ضربت مثلاً للكثرة غير المعتاد سماعها للكافرين ، ومن سنته تعالى ضرب الأمثال فى تنزيله ، وإلا فلا يعلم جنوده التى يسلِّطها على تعذيب من يشاء إلا هو (٣) .

---

(١) التحرير والتنوير ٣١٩/٢٩ .
(٢) التفسير البلاغى للاستفهام ٣١٦/٤ .
(٣) محاسن التأويل ٢١٤/١٦ .

وقوله : " وما هى إلا ذكرى للبشر " معطوف على ما سبق ، وهذا رجوع إلى ذكر النار فى قوله : " سأصليه سقر " ، والمراد :وما سقر وصفتها إلا موعظة للناس ، وعُبِّر عنها بـ " ذكرى " لاعتبار الوعيد بها وذكر أهوالها ، و " العطف قيل : على قوله تعالى : - سأصليه سقر - ، - وما جعلنا أصحاب النار - إلى هنَا اعتراض ، ووجهه أنه لما قيل: - عليها تسعة عشر - زيادة فى تهويل أمر جهنم عقب بما يؤكِّد قوتَهم وتسلُّطهم وتباينهم بالشدَّة عن سائر المخلوقات ثم بما يؤكِّد الكمية وما أكُّد المؤكُّد فهو مؤكَّدْ أيضاً ، وقيل : الضمير للآيات الناطقة بأحوال سقر ، وقيل : لعدة خزنتها والتذكير والعظة فيها من جهة أن فى خلقه تعالى ما هو فى غاية العظمة حتى يكون القليل منهم معذِّباً ومُهلكاً لما يحصى دلالة على أنه عزَّ وجلَّ لا يقدر حقَّ قدره ولا توصف عظمته ولا تصل الأفكار إلى حرم جلاله، وقيل : الضمير للجنود (١)

والمراد : وما هذه النار التى وصفها لكم الجبَّار إلا موعظة وتذكرة للخلق ليخافوا ويطيعوا ، وقيل : إن هذا متَّممُ لقوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وهو أسلوبُ جارٍ على سنن الأسلوب الحكيم - أشرنا إليه سابقاً من حيث تعريفه - والمعنى : إن النافع لكم أن تعلموا أن الخبر عن خزنة النار بأنهم تسعة عشر . فائدته أن يكون ذكرى للبشر ليتذكروا دار العقاب بتوصيف بعض صفاتها لأن فى ذكر الصفة عوناً على زيادة استحضار الموصوف ، فغرض القرآن الذكرى ، وقد اتخذه الضُّالون ومرضى القلوب لهواً وسخرية ومراء بالسؤال عن جعلهم تسعة عشر وَلِمَ لَمْ يكونوا عشرين أو مئات أو آلافاً وضمير - هى - على هذا الوجه راجع إلى

---

(١) روح المعانى ١٣٠/٢٩ .

– عدَّتهم – (١) وقوله : وما هى إلا ذكرى للبشر " أسلوب قصر من قصر الموصوف على الصفة وهو كون جهنم تذكرة وموعظة للبشر أو الآيات القرآنية – كما قيل – وطريقه النفى والاستثناء قصراً إضافياً ، وهو قصر تنزيلىٌ حيث نُزِّل هؤلاء المستهزءون منزلة المنكرين الجاهلين لأمرها " والاستثناء مفرَّغ من جميع الأوصاف ، والمعنى ما هى موصوفة بوصف إلا وصف ذكرى ، واللام فى – للبشر – للاختصاص ، والذكرى العظة والعبرة الهادية إلى الحق (٢) .

والقصر متوَّجهٌ إلى مضاف محذوف يدلُّ عليه السياق تقديره : وما ذكرها أو وصفها أو نحو ذلك ، وبين قوله : " للبشر " هنا وقوله : " لوَّاحة للبشر " جناسٌ تامٌ (٣) لفظىٌ وخطىٌ ، أما كون الجناس تاماً فلا تفاق الكلمتين فى عدد الحروف وهيئتها ونوعها وترتيبها وكونه لفظياً لأن اللفظين واحدان، وكونه خطياً لتشابه الكلمتين فى الخطِّ ، والمعنى فيهما مختلف إذ الأولى وهى التى فى قوله : " ذكرى للبشر " يراد بها الناس من الإنس والجن ، والثانية التى فى قوله : " لوَّاحة للبشر " يراد بها جمع بشرة وهى الجلد .

قوله تعالى : ﴿كَلا وَالْقَمَرِ. وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ. وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ﴾

النظم البلاغى : قوله : "كلاَّ" ردع وزجر وإبطال لمن ينكر أن تكون " سقر" إحدى الكبر نذيراً للبشر .

---

(١) التحرير والتنوير ٣١٩/٢٩ ، ٣٢٠ .

(٢) التفسير البلاغى للاستفهام ٣١٦/٤ .

(٣) الجناس التامُّ : ما اتفق اللفظان فى نوع الحروف وعددها وهيئتها وترتيبها . دراسات منهجية فى علم البديع /١٩٧ د/ الشحات أبو ستيت ، البديع فى ضوء أساليب القرآن/١٦٠ د/ لاشين ، مباحث فى وجوه تحسين الكلام /١٨٩ د/ رفعت السوادنى .

قال الشيخ الطاهر ابن عاشور : " والغالب أن يقع – الرَّدع – بعد كلام متكلم واحداً ومن متكلم وسامع مثل قوله تعالى: – قال أصحاب موسى إنَّا لمدركون . قال كلاَّ إنَّ معى ربى سيهدين (١) – فيفيد الرَّدع عما تضمنه الكلام المحكى قبله ، ويجوز تقديمه على الكلام إذا أريد التعجيل بالردع والتشويق إلى سماع ما بعده ، وهو هنا محتمل لأن يكون إبطالاً لما قبله من قولهم : – ماذا أراد الله بهذا مثلاً – فيكون ما بينهما اعتراضاً ، فيكون قوله: – والقمر – ابتداء كلام فيحسن الوقف على – كلا – (٢)

ثم يقول أيضاً – رحمه الله–: " ويحتمل أن يكون حرف إبطال مقدَّماً على الكلام الذى بعده من قوله : – نذيراً للبشر – تقديم لإبطال ما يجئ بعده من مضمون قوله : – نذيراً للبشر– أى من حقِّهم أن ينتذروا بها فلم ينتذر أكثرهم على نحوه معنى قوله :– وأنىَّ له الذكرى– (٣) فيحسن أن توصل القراءة بما بعدها (٤) .

وبعض المفسِّرين جعلها بمعنى " ألاَ " الاستفتاحية ، ومنهم من جعلها بمعنى – حقَّاً – فمن جعلها بمعنى "ألاَ " بفتح الهمزة وتخفيف اللام كانت مفيدة للتنبيه على تحقُّق ما بعدها ، ومن جعلها بمعنى – حقَّاً – قال : إن المعنى حقَّاً والقمر فلا يوقف على " كلاَّ " .

---

(١) الشعراء /٦١،٦٢ .

(٢) التحرير والتنوير ٣٢١/٢٩ .

(٣) الفجر /٢٣ .

(٤) التحرير والتنوير ٣٢١/٢٠ .

وجعلها العلاَّمة الزمخشري للإنكار فقال : " إنكار بعد أن جعلها ذكرى أن تكون لهم ذكرى لأنهم لا يتذكَّرون ، أو ردع لما ينكر أن تكـــون إحـــدى الكبر نذيراً (١) .

وقد تعقَّب أبو حيَّان كلام الزمخشري : منكراً عليه ما ذهـــب إليـــه – الإنكار – بقوله : " ولا يسوغ هذا في حق الله تعالى أن يخبر أنهـــا ذكـــرى للبشر ثم ينكر أن تكون لهم ذكرى وإنما قوله – للبشر – عام مخصوص(٢)، وفي البحر أيضاً : " أن المراد بالرَّدع في هذا الحرف هو على مـــا قيـــل : ردع لقول أبي جهل وأصحابه أنهم يقدرون على مقاومة خزنة جهنم ، وقيل: ردع عن الاستهزاء بالعدة المخصوصة – وهي تسعة عشر – (٣) .

وقد أجاب الألوسي عن اعتراض أبي حيان على الزمخشري : بأنه لا يناقض لأن معنى كونها ذكرى أنَّ من شأنها أن تكون مذكرة لكل أحد ومـــن لم يتذكر لغلبة الشقاء عليه لا يعدُّ من البشر ولا يلتفت إليه لعدم تذكره كما أن حلاوة العسل لا يضرها كونها مرَّة في فم منحرف المـــزاج المحتـــاج إلـــى العلاج وحال حسن الوقف على – كلاَّ – وعدم حسنه هنا يعلم من النظر إلى المراد بها ، وصرح بعضهم بذلك فقال إن كانت متعلقة بالكلام السابق يحسن الوقف عليها ، وإن كانت متعلقة بالكلام اللاحق لا يحسن ذلك أي كمـــا إذا كانت بمعنى – ألاَ – الاستفتاحية فالوقف حينئذ تامٌ على– البشر – ويستأنف –كلاَّ–(٤) ، وعلى قول من قال إنها بمعنى " ألاَ " الاستفتاحية فإنما جئ بهـــا

---

(١) الكشاف ١٨٦/٤ .

(٢) البحر المحيط ٣٧٨/٨ .

(٣) السابق نفسه .

(٤) روح المعاني ١٣٠/٢٩ ، حاشية الشهاب ٢٧٨/٨ .

تعظيماً للمقسم عليه ، وحينئذ فالوقف على ما قبلها "للبشر " ويبدأ الكلام بقوله " كلاَّ " وعلى قول من قال إنها بمعنى " حقاً " فقد جئ بها تأكيداً للقسم بعده .

وقال ابن هشام : " وهى عند سيبويه والخليل والمبرِّد والزجَّاج وأكثر البصريين حرف معناه الردع والزجر لا معنى لها عندهم إلا ذلك حتى إنهم يجيرون أبداً الوقف عليها والابتداَء بما بعدها ، ورَأىَ الكسائىُّ وأبو حاتم ومن وافقتها أن معنى الردع والزجر ليس مستمراً فيها فزادوا معنى ثانياً يصحُّ عليه أن يوقف دونها ويبتدأ بها ، ويرى السكاكى أنها تكون بمعنى حقاً، ويرى أبو حاتم أنها تكون بمعنى ألاَ الاستفتاحية ، ويرى النضر بن شميل والفرَّاء ومن وافقهما أنها تكون حرف جواب بمنزلة إى ونعم وحملوا عليه قوله : "كلاَّ والقمر " فقالوا معناه إى والقمر ، وهى جواب للتصديق(١).

والواو فى قوله : " والقمر " للقسم و "القمر" مقسم به للتخصيص والتشريف والتنبيه على النظر فى عجائبه وقدرة الله تعالى فى حركاته المختلفة التى هى مع كثرتها واختلافها على نظام واحد لا يختلُّ (٢) .

وقد أقسم القرآن بالقمر لما فيه من الآيات العجيبة فى طلوعه وغروبه ومسيره وزيادته ونقصانه ومنازله التى ينزل فيها.

" وهذا القسم يجوز أن يكون تذييلاً لما قبله مؤكِّداً لما أفادته – كلاَّ – من الإنكار والإبطال لمقالتهم فى شأن عدة خزنة النار ، فتكون جملة – إنها لإحدى الكبر – تعليلاً للإنكار الذى أفادته – كلا – ويكون ضمير إنها – عائداً إلى – سقر – أى هى جديرة بأن يتذكُّر بها فلذلك كان من لم يتذكَّر بها حقيقاً بالإنكار عليه وردعه ، وجملة القسم على هذا الوجه معترضة بين

---

(١) مغنى اللبيب وبهامشه حاشية الدسوقى ١/١٦٠ وما بعدها .

(٢) المحرر الوجيز ٥/٣٩٧.

الجملة وتعليلها ، ويحتمل أن يكون القسم صدراً للكلام الذى بعده ، وجملة – إنها لإحدى الكبر – جواب القسم والضمير راجع إلى – سقر – أى إن سقر لأعظم الأهوال (١)

والمراد من الآية الردع والزجر أى ليرتدع أولئك المستهزئون بالوحى والقرآن عن فعلهم وسوء صنيعهم ، وأقسم بالقمر والليل إذ أدبر أى حين ولّى ذاهباً بظلمته ، والصبح إذا أسفر وتبلّج بنوره وأضاء ، ونشر ضياءه على الأكوان ، والتعبير بـ " إذا " الدالّة على الماضى لمناسبتها للفعل الماضى لتحقّق وقوعه ، و " إذا " للمستقبل والماضى أو هى تقلبه مستقبلاً – كما قيل – فأقسم بالليل فى حالة إدباره التى مضت وهى متجدّدة تمضى وتحضر وتستقبل فأى زمن اعتبر معها فهى حقيقة بأن يقسم بكونها فيه ، ولذلك أقسم بالصبح إذا أسفر مع اسم الزمن المستقبل (٢) ، وإذا ظرفان للزمان منصوبان على النال من الليل والصبح ، والمعنى : أقسم بهما فى هذه الحالة العجيبة الدالة على النظام المحكم المشابه لمحو الله ظلمات الكفر بنور الإسلام ، وإدبار الليل معناه اقتراب تقضّيه عند الفجر ، وإسفار الصبح هو ابتداء ظهور ضوء الفجر ، ومناسبة القسم بـ " القمر والليل إذ أدبر . والصبح إذا أسفر " أن هذه الثلاثة تظهر بها أنوار فى خلال الظلام فناسبت حالى الهدى والضلال فى قوله تعالى : كذلك يضلُّ الله من يشاء ويهدى من يشاء " وفى قوله تعالى : " وما هى إلا ذكرى للبشر " وعلى هذا فقد تضمّن القسم تلويحاً إلى تمثيل حال الفريقين من الناس المؤمن المصدّق ، والكافر المعاند عند نزول القرآن والآيات الدّالّة على صدقه وصدق المرسل به بحال

---

(١) التحرير والتنوير ٣٢١/٢٩ .

(٢) التحرير والتنوير ٣٢٢/٢٩.

اختراق النور فى الظلمة لإزالتها ممثّلاً جانب الإيمان ، وبقاء الظلمة طامسة على أبصار أصحابها ممثّلة فى جانب الكفر والضلال على سبيل الاستعارة التمثيلية . فهذه ثلاثة أيمان أقسم بها الله تعالى لزيادة التأكيد على كون جهنم أو سقر أكبر البلايا والشدائد ، وذلك أن التأكيد اللفظى إذا أُكِّد بتكراره يكرَّر ثلاث مرات كما هو الغالب ، فأقسم سبحانه بمخلوق عظيم ، وبحالين عظيمين : " والليل إذ أدبر والصبح إذا أسفر " للدلالة على آثار قدرته تعالى.

قال أبو حيان : " أقسم تعالى بهذه الأشياء تشريفاً لها وتنبيهاً على ما يظهر بها ، وفيها من عجائب الله وقدرته وقوام الوجود بإيجادها ، أقسم على أن جهنم إحدى الدواهى العظيمة التى لا نظير لها " (١)

فالقسم بالقمر والليل والصبح تخصيص وتشريف وتنبيه على عظيم قدرته تعالى ، وتحصيل للمعرفة بعود العظمة إليه تعالى فهو مالك الكلّ وقوام الوجود به ونور السماء والأرض لا إله إلا هو العزيز القهّار.

" وفى الآية إيماءٌ إلى أن الشمس والقمر مخلوقان لله ، وأنهما فى حركاتهما وإدبارهما وإسفارهما ، ونشوء الليل والنهار عنهما ، مسخرّان لأمره تعالى ساجدان بين يدى قدرته وقهره ، فكيف يحسن بالبشر أن يعبدوهما ويكفروا بالإله الذى خلقهما ؟ " (٢)

وفى قوله : " والليل إذا أدبر " إستعارة مكنية شبه الليل بإنسان يولّى وجهه ويذهب ثم حذف المشبه به ودلّ عليه بشئ من لوازمه وهو الإدبار .

وقرئ " دَبَر " بالثلاثى وهى قراءة ابن كثير وابن عامر وأبى عمرو البصرى ، وأبى بكر عن عاصم والكسائى وأبى جعفر على أنه فعل ماض

---

(١) البحر المحيط ٣٧٨/٨.

(٢) صفوة التفاسير ٤٧٩/٢٩.

مجرَّرد يقال : دَبَر بمعنى أدبر على وزن ضرب ، وقرأ حفص ونافع وحمزة ويعقوب الحضرميُّ وخلف بالألف من " أدبر " والقراءتان سبعيتان والرسم محتمل لكلٍّ منهما إذا الصورة الخطيَّة لا تختلف " (١)

قال جار الله الزمخشرى :" و – دَبَر – بمعنى – أدبر – كقبل بمعنى أقبل ومنه صاروا كأمس الدَّابر وقيل : هو من دَبَر الليلَ النَّهارُ إذا خلفه (٢)

وهو أيضاً – دَبَر – استعارة تبعية شُبِّه لحوقُ النهار بالليل ومجيئه خلفه بالإقبال من النَّهار والذَّهاب من الليل وهو الإدبار بجامع التولّى فى الآخر والمجئ فى الأول.

وقال الشيخ الجمل : "فمن العلماء مَنْ لم يفرِّق بينهما – دَبَر وأَدْبَر – وأنهما بمعنى واحد – كما رأينا عند الزمخشرى وغيره – ومنهم من فرَّق بينهما كيونس بأنَّ – دَبَر – بمعنى انقضى ، و – أَدْبَر بمعنى تولىَّ وذهب(٣)

وفى قوله : " أسفر " استعارة تبعية شُبِّه بياضُ الصبح وطرحه الظلمة عن وجهه بالاسفرار وهو ظهور شئ أبيض كان خافياً مستتراً .

قوله تعالى : ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ﴾ نذيراً للبشر . لمن شاء منكم أن يتقدَّم أو يتأخَّر" .

النظم البلاغى : قوله : " إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ" جملة لا محل لها من الإعراب جواب للقسم فى قوله :" كلا والقمر " إلخ ، والمعنى : إنَّ جهنم لإحدى الدواهى الكبيرة ، والبلايا العظام ، فكيف يستهزئون بها ويكذبون ؟

---

(١) حاشية الصاوى ٤/٢٥٣.

(٢) الكشاف ٤/١٨٦ .

(٣) حاشية الجمل ٤/٤٤٢ بتصرف .

قال العلاَّمة الزمخشرى إنها : " جواب القسم أو تعليل لـــ - كــلاَّ - والقسم معترض للتوكيد ، و - الكبر - جمع الكبرى جعلت ألــف التأنيــث كتائها فلما جمعت فُعْلَة على فُعَل جمعت فُعْلَىَ عليها ، أى لإحدى البلايــا أو الدواهى الكبر ومعنى كونها إحداهن أنها من بينهن واحدة فى العظم لا نظيرة لها كما تقول هو أحد الرجال وهىَ إحدى النساء (١).

وقد اعترض السمين الحلبى : على جعلها تعليلاً لــ " كــلاَّ " وكــون القسم معترضاً للتوكيد ، لأنه حينئذ يحتاج إلى تقدير جــواب وفيــه تكلُّــف وخروج عن الظاهر (٢) ، وقد نهج السمين فى اعتراضه ذلك منهج جِلَّة من المفسرين من أن المتعيَّن هنا كونه جواباً للقســم ويكــون تصــدير الجملــة بالمؤكِّدات مبنياً على تنزيل من لم يتذكَّر بها منزلة المنكر لــ " سقر " وهو أرجح وأنسب بالمقام (٣).

وقال المفسِّرون : المراد من " الكُبَر " دركات جهنم وهى سبع : جهنم، ولظى والحطمة وسعير وسقر والجحيم والهاوية ، فعلى هذا معنى كون سقر إحداهن ظاهر (٤) ، وقوله : " إنها لإحدى الكبر " جارٍ مجرى المثل وهــو نوع من التذييل الذى يراد به تعقيب الجملة بجملة أخرى تتفــق معهــا فــى المعنى وتكون مؤكِّدة للجملة الأولى ، والمراد بجريانه مجرى المثل أن تكون مما تردِّده الألسنة ، ويصلح أن يكون مثلاً للعبرة والتأسىِّ .

---

(١) الكشاف ١٨٦/٤ ، أبو السعود ٦٠/٩ ، ٦٠ .

(٢) الدرر المصون ٤١٩/٦ .

(٣) حاشية الشيخ زاده ٥٧٦/٤ ، روح المعانى ١٣٠/٢٩، حاشية الشهاب ٢٧٨/٨ .

(٤) غرائب القرآن ٣٢٧١/٤ ، حاشية الشهاب ٢٧٨/٨ ، روح المعانى ١٣٠/٢٠ .

وفى الآيات " كَلا وَالْقَمَرِ. وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ. وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ. إِنَّهَا لإِحْدَى الْكُبَرِ" ما يعرف بالسجع المرصع وهو " ما اتفقت فيه الفاصلتان فى الوزن والتقفية مع اتفاق باقى ألفاظ القرينتين أو أكثرها فى الوزن والتقفية كذلك (١)

وهو إذا سلم من التكلف والتوالى والاستكراه كان حسناً كما يقول أبو هلال(٢) وذلك لظهور التناسب التامّ بين جميع ألفاظه مما يجعل له وقعاً موسيقياً أخَّاذاً . وسمَّوه كذلك تشبيهاً له بالعقد المرصُّع وهو ما يجعل فيه إحدى اللؤلؤتين فى مقابلة الأخرى مثلها (٣) .

وفى قوله : " إنها لإحدى الكبر" وضع المضمر " إنها " موضع المظهر: إن سقر أو جهنم مع تقديم ضمير الشأن أو القصة ليتمكن فى ذهن السامع ما يعقب الضمير أى يجئ على عقبه ، فإن السامع متى لم يفهم من الضمير معنى بقى منتظراً لعقبى الكلام : كيف تكون ؟ فيتمكَّن المسموع بعده فى ذهنه فضل تمكُّن ، وهو السرُّ فى تقديم ضمير الشأن أو القصة (٤) .

وقوله : " نذيراً للبشر " فيه أوجه : أحدها – أنه تمييز عن – إحدى – لما تضمنَّه من معنى التعظيم كأنه قيل : أعظم الكبر إنذاراً . فنذير بمعنى الإنذار كنكير بمعنى الإنكار ، والثانى : أنه مصدر بمعنى الإنذار أيضاً

---

(١) دراسات منهجية فى علم البديع /١٠٣ د/ الشحات أبو ستيت ، مباحث فى وجوه تحسين الكلام /٢١٩ د / رفعت السودانى .

(٢) الصناعتين /٤١٩ .

(٣) مواهب الفتاح ، حاشية الدسوقى ضمن الشروح ٤٤٧/٤ ، الأطول ١٣٣/٢ ، المثل السائر ٢٥٨/١ .

(٤) الإيضاح ٨٢/٢ بتصرف ت د خفاجى .

منصوب بفعل مقدَّر ، الثالث : أنه فعيل بمعنى مفعل وهو حال من الضمير ، – إنها – ، الرابع : أنه حال من الضمير فى – إحدى – لما تضـــمنت مـــن معنى التعظيم كأنه قيل : أعظم الكبر منذرة إلخ (١) .

قال الشوكانى : " وقد اختلف فى النذير. فقال الحسن : هـــى النـــار ، وقيل : محمد – ﷺ – وقال أبَو رزين : المعنى أنا نذير لكم منها ، وقيـــل : القرآن نذير للبشر لما تضمنه من الوعد والوعيد (٢).

وكون " نذيراً" صفة للنار والمعنى : أن النار نذير للبشـــر ولـــذا قـــال الحسن : " والله ما أنذر بشئ أدهى من النار ، أو أن " نذيراً " صفة لله تعالى والمعنى أنا لكم منها نذير فاتقوها ، أو أنها صفة له – ﷺ – والمعنى : يـــا أيها المدثر قم نذيراً للبشر فأنذر – هكذا قال الخازن – (٣) واللام فى " للبشر " مؤسسّة لتقوية العامل ، وهذا إخبار منه تعالى عن جهنم فى كونها " نذيراً للبشر " فهى إنذار للخلق ليتقوا ربَّهم .

وقوله : " لمن شاء منكم أن يتقدَّم أو يتأخَّر " إما أنه بدل من قولـــه :" للبشر" وهو بدل مفصَّل من مجمل بإعادة العامل وهو حرف الجرّ مع البـــدل للتأكيد كما فى قوله تعالى : "لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُـــوتِهِمْ" (٤) و " أن يتقدم " مفعول " شاء" والمراد : نذيراً لمن شاء التقدُّم أو التأخير ، وقد ذكـــر مفعول " شاء" لوجود غرابة فيه ، إذ المعنى : إنها نذير لمن شاء أن يتقـــدم إلى الإيمان والخير لينتذر بها ، ولمن شاء أن يتأخر عن الإيمان والخير فلا

---

(١) حاشية الجمل ٤/٤٤٢ ، ٤٤٣ ، الدر المصون ٦/٤١٩ ، ٤٢٠ .

(٢) فتح القدير ٥/٤٠٦ .

(٣) تفسير الخازن وبهامشه البغوى ٦/١٧٩ .

(٤) الزخرف /٣٣ .

يرعوى بنذارتها . لأن التقدُّم مشى إلى جهة الأمام فكأنَّ المخاطب يمشى إلى جهة الداعى الإيمان وهو كناية عن قبول ما يدعو إليه ، وبعكسه التـــأخرُّ ، فحذف متعلق " يتقدَّم " و " يتأخَّر " لظهوره من السياق ، ويجوز أن يقـــدَّر : لمن شاء أن يتقدَّم إليها أى إلى سقر بالإقدام على الأعمال التى تقدمه إليها ، أو يتأخَّر عنها بتجنُّب ما من شأنه أن يقرِّبه منها (١)

وإما أن يكون قوله : " لمن شاء " خبراً مقدماً و " أن يتـــأخَّر " مبتـــدأ مؤخر كما يقال : لمن توضَّأ أن يصلى ، معناه مطلق لمن شـــاء التقـــدُّم أو التأخر أن يتقدَّم أو يتأخَّر فالتقدُّم والتأخُّر هو مفعول " شاء" المقدَّر والمـــراد بالتقدُّم والتأخُّر السبق إلى الخير والتخلُّف عنه ، وهو رأى الإمام الزمخشرى ومن نحا نحوه (٢) .

ولم يرتض أبو حيان هذا الرأى فقال : " وهو معنى لا يتبـــادر إلـــى الذهن ، وفيه حذف ، قيل : والتقدُّم الإيمان والتأخُّر الكفر ، وقال السُّدِّى : أن يتقدَّم إلى النار المتقدِّم ذكرها أو يتأخَّر عنها إلى الجنة ، وقال الزجَّـــاج: أن يتقدَّم إلى المأمورات أو يتأخَّر عن المنهيات والظاهر العموم فى كل نفس(٣).

وفى ضمير " منكم " التفات من الغيبة إلى الخطاب . إذ مقتضى الظاهر أن يقال : لمن شاء منهم أى من البشر الذين حكى عنهم النذارة ، وتعليـــق " نذيراً" بفعل المشيئة هو إنذار لمن لا يتذكَّر بأِن عدم تذكُّره ناشئ عن عـــدم مشيئته فالتبعية عليه لتفريطه ، " وقيل : يتقدَّم فى الخير والطاعة ، أو يتأخَّر

---

(١) التحرير والتنوير ٣٢٣/٢٩ بتصرف

(٢) الكشاف ١٨٦/٤ ، الدر المصون ٤٢١/٦ ، حاشية الشـــيخ زاده ٥٧٧/٤ ،، حاشـــية الشهاب ٢٧٩/٨ .

(٣) البحر المحيط ٣٧٩/٨ .

عنهما فيقع فى الشرِّ والمعصية ، والمعنى : أن الإنذار قد حصل لكل أحـــد ممن آمن أو كفر ، وقد تمسَّك بهذه الآية من يرى أن العبد غير مجبور على الفعل وأنه متمكِّن من فعل نفسه ، وأجيب عنه بأن مشيئته تابعة لمشـــيئة الله تعالى ، وقيل : إضافة المشيئة إلى المخاطبين على سبيل التهديد (١) .

قال الطبرى : قال ابن عباسَ : من شاء اتبع طاعة اله ، ومـــن شـــاء تأخر عنها بمعصيته(٢) ، وبين الفعلين " يتقدَّم" و " يتأخَّر " طبـــاقٌ لفظـــيٌّ حقيقيٌّ حسَّن المعنى .

---

(١) تفسير الخازن وبهامشه البغوى ١٧٩/٦ .

(٢) جامع البيان ١٠٣/٢٩ .

المبحث الرابع

الحوار بين المؤمنين والمجرمين

فى الآخرة

قال تعالى :﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ . إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ . فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءلُونَ. عَنِ الْمُجْرِمِينَ. مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾ .

النظم البلاغى : قوله تعالى : " كلُّ نفس "استئنافٌ بيانىٌّ يبيِّن للسامع عاقبة الاختيار الذى فى قوله : " لمِن شاء منكم أن يتقدَّم أو يتأخَّر " ، ومن هنا فصلت هذه الجملة عمَّا سبق لشبه كمال الاتصال فكأن قوله تعالى : " لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر " أثارت سؤالاً وهو : إذا تقدم بالطاعة وتأخر بالمعصية ما الذى يترتَّب على ذلك ؟ فقيل يرتهن بعمله وبما كسبت يداه فنفسه محبوسة بعملها مرهونة عند الله بكسبها ، ولا تفكُّ حتى تؤدى ما عليها من الحقوق والعقوبات فهو على نفسه بصرة ليكسب ما يقضى به إلى النعيم أو إلى الجحيم و " كلُّ نفس " من باب إطلاق العامِّ وإرادة الخاصِّ ، والخاصُّ المراد هنا هو أنفس المنذرين من البشر من قبيل المجاز المرسل وعلاقته الخصوص ، والقرينة هى ما تفيده مادة " رهينة " من معنى الحبس والأسر .

والباء فى قوله " بما " للمصاحبة أى مصحوبة بكسبها ، وليست للسببية كما قيلُ : كل رجل وضيعته أو وعمله ، وهذا كلامٌ مُنْصِفُ وليس بخصوص تهديد أهل الشرِّ .

وقوله : " رهينة " فيه ثلاثة أوجه : الأول : أن " رهينة " بمعنى رهن كالشتيمة بمعنى الشَّتم قال – جار الله – : ليست بتأنيث رهين فى قوله : " كلُّ امرئ بما كسب رهين (١) لتأنيث النفس لأنه لو قصدت الصفة لقيل : رهين ، لأن فعيلاً بمعنى مفعول يستوى فيه المذكر والمؤنث ، وإنما هى اسم

---

(١) الطور /٢١ .

بمعنى الرهن كالشتيمة بمعنى الشتم كأنه قيل : كل نفس بما كسبت رهـــين ، ومنه بيت الحماسة (١) .

أَبَعْدَ الذَّي بِالنَّعْفِ نَعْفِ كُوَيْكبِ ** رَهِينَةُ رَمْسٍ ذِي تُرَابٍ وَجَنْدَلِ

كأنه قال : رهن رمس ، والمعنى : كل نفس رهن بكسبها عند الله غير مفكوك (٢) ، والثانى : أن الهاء فى – رهينة – للمبالغة ، والإخبـــار بهـــذا المصدر للمبالغة كما فى بيت مسور حيث أثبت الهاء فى صفة المذكر وليس هنا دافع للتأنيث الثالث : أن التأنيث لأجل الفظ . قال أبو حيان : وقيل على تأنيث اللفظ لا على الإنسان ، والذى أختاره أنها مما دخلت فيه التاء وإن كان بمعنى مفعول فى الأصل كالنطيحة ، ويدل على ذلك أنه لما كان خبراً عـــن المذكر كان بغيرها قال تعالى : – كلُّ امرئ بما كسب رهين – فأنت تـــرى حيث كان خبراً عن المذكر أتى بغير تاء وحيث كان خبراً عن المؤنث أتـــى بالتاء – كما هنا – فأما الذى فى البيت فأُنِّث على معنى النفس (٣) .

والتعبير بـــ " رهينة " من الرهن " لأن الرهن يكون لتحقيق المطالبـــة بحقّ يخشى أن يتفلّت منه المحقوق به ، فالرهن مشعر بالأخذ بالشدة ، ومنه رهائن الحرب الذين يأخذهم الغالب من القوم المغلوبين ضماناً لئلا يخـــيس القوم – ينكثوا – بشروط الصلح وحتى يعطوا ديات القتلى فيكون الانتقام من

---

(١) ديوان الحماسة ٩٠/١ ، والبيت لمسور بن زيادة الحارثى وقيل لعبد الرحمن بن زيد، قتل أبوه زيادة فعرض عليه فيه سبع ديلت فأبى إلا الثأر ، والنعـــف بـــالفتح الجبـــل والمكان المرتفع ، وقيل ما يستقبلك من الجبل ، وكويكب جبل بعينه .

(٢) الكشاف ١٨٦/٤ .

(٣) البحر المحيط ٣٧٩/٨ ، الدر المصون ٤٢١/٦ .

الرهائن (١) قوله : " إلا أصحاب اليمين " استثناء متصل لأن الله تعالى جعل تكليف عباده كالدَّين عليهم ونفوسهم تحت استيلائه وقهره فهى رهينة فَمَنْ وفىَّ دَيْنَه الذى كُلِّف به خلَّص نفسه من عذاب الله تعالى الذى نُزِّل منزله علامة الرهن وهو أخذه فى الدين ، ومَنْ لم يوفِّ عُذِّب فالمراد بـ " أصحاب اليمين " على الاستثناء المتصل المسلمون المخلصون ليسوا بمرتهنين لأنهم أدَّوا ما كان عليهم ، وقيل : إن الاستثناء منقطع والمراد بهم على هذا أطفال المسلمين لأنهم لا أعمال لهم يرتهنون بها ، وقيل : هم الملائكة ، والمعنى : لكن أصحاب اليمين فى جنات ، وقيل : يجوز الاتصال والانقطاع بناء على أن الكسب مطلق العمل أو ما هو تكليف (٢)

والتعبير بـ " أصحاب " دلالة على مصاحبتهم لهذه الجهة من حيث أخذ كتبهم أو غيرها ، والتعبير بالاسم " أصحاب " دلالة أيضاً على ثبوت هذه الصفة لهم ودوامها لحالهم ، والتعبير بـ " اليمين " لأن اليمين هو جهة أهل الكرامة فى الاعتبار كجهة يمين العرش أو يمين مكان القدس يوم الحشر وأخذ السعداء كتبهم بيمينهم وغير ذلك مما لا يحيط بها الوصف ، والتعبير باليمين مشهور فى الخير والنفع كما فى قوله - ﷺ - يمين الله ملأى سحَّاء لا يغيضها شئُ الليلَ والنهَّارَ (٣) .

---

(١) التحرير والتنوير ٣٢٤/٢٩ .

(٢) من بلاغة النظم القرآن فى أساليب السؤال والجواب /٤٦ د/ أحمد ناجى ، إعراب القرآن وبيانه ٢٩١/١٠،٢٩٠.

(٣) صحيح مسلم ٦٩٠/٢ ، ٦٩١ ك الزكاة الحثُّ على النفقة ج رقم ٩٣٣ من رواية أبى هريرة - ﷺ - .

وكقول الشمّاخ بن ضرار فى عَرَابة الأوسى (١) .

رأيت عَرَابَة الأوسىَّ يسمو ** إلى الخيرات مُنْقَطِعَ القرين

إذا مـــا رايةُ رُفعتْ لمجد ** تلقَّاهـــا عَرَابةُ باليمـــــين

إذ اليمين مضروبة فى القوة والشدة كما يقول أصحاب المعانى ، كمـــا أن الشمال جعلت علامة اهل الشر فى تناول صحف أعمالهم وفى مـــواقفهم وغير ذلك كما حكى القرآن عنهم ذلك كثيراً.

وقوله : " فى جنَّات لمبتدأ محذوف ، والتقدير : هم فى جنَّـــات وهـــى جملة مستأنفة استئنافاً بيانياً نشأت جواباً لسؤال نتج عن الاستثناء فى قوله : " إلاَّ أصحاب اليمين " إذا لمراد فما شأنهم وحالهم فقيل هم فى جنات لا يكتنه كنهها ولا يدرك وصفها ، والتنوين للتعظيم ، ويجوز أن يكون متعلقاً بقوله : " يتساءلون " قُدِّم للعناية والاهتمام مع رعاية الفاصـــلة ، وقيـــل : ظـــرف للتساؤل، و " يتساءلون " حال من أصـــحاب اليمـــين " أو مـــن ضـــميرهم المحذوف ، ومن هنا استخدم لأجل الاستثناء المنقطع – كما قيل – .

<u>المراد بالتساؤل</u> : يجوز أن يكون من التساؤل الواقع بين اثنين علـــى معنى أن أصحاب اليمين يسأل بعضهم بعضاً عن أحوال المجرمين ، ويجوز أن يكون بمعنى يسألون أى يسألون غيرهم عن أحوال المجرمين فإن تفاعل قد يجئ بمعنى فعل كما يقال : تداعينا أى دعونا (٢) .

---

(١) ديوانـــه /٣٣٥ ، ٣٣٦ ت صـــلاح إلـــدين الهـــادى ، الكامـــل ١/٧٥ ، ٧٦ ، الصناعتين/٢٣١ ، الأسرار / ٢٨٦ ت رشيد رضا ، الإيضاح ٣/٢٢٣، ٥/١١٢ ت د/ خفاجى.

(٢) من أساليب السؤال والجواب فى القرآن /٤٦ .

قال الألوسى : " وليس المراد بتساؤلهم أن يسأل بعضهم بعضاً على أن يكون كلٌ واحد منهم سائلاً ومسئولاً معاً بل وقوع السؤال منهم مجرَّداً عن وقوعه عليهم فإن صيغة التفاعل وإن وضعت فى الأصل للدلالة على صدور الفعل عن المعتدّى ووقوعه عليه معاً بحيث يصير كلٌ واحد من ذلك فاعلاً ومفعولاً معاً كما فى قولك تشائم القوم أى شتم كلٌ واحد منهم الآخر لكنها قد تجرَّد عن المعنى الثانى ويقصد بها الدلالة على الأول فقط ويكون الواقع عليه شيئاً آخر كما فى قول من قال تراه والهلال (١) .

ثم يقول : " قال – جار الله – إذا كان المتكلم مفرداً يقول دعوته وإذا كان جماعة يقول تداعيناه ونظيره رميته وترامیناه ورأيت الهلال وتراءيناه ولا يكون هذا التفاعل من الجانبين وعلى هذا فالمسؤول محذوف أعنى المجرمين والتقدير : يتساءلون المجرمين عنهم أى يسألون المجرمين عن أحوالهم فَغُيِّر إلى ما فى النظم الجليل ، وقيل : يتساءلون عن المجرمين – والمعنى على ذلك ، وحذف المسؤول لكونه غير المسؤول عنه (٢) .

توجيه مجئ حرف الجرّ " عن " فى قوله تعالى : "عن المجرمين "

على التقديرين السابقين فى بيان التساؤل : ليس المجرمون مسئولاً عنهم بل هم المسئول منهم فلا بدَّ من توجيه " عن " فإن قوله : " ما سلككم فى سقر " ؟ سؤال للمجرمين ، وقوله : " يتساءلون عن المجرمين " سؤال عنهم فلا يتطابقان ، وإنما يتطابقان لو قيل : يسألون المجرمين ما سلككم فى سقر ؟ وتوجيه الكلام أن قوله : " ما سلككم فى سقر " مع جوابه حكاية من قبل المسئولين لما جرى بينهم وبين المجرمين من السؤال والجواب ،

---

(١) روح المعانى ١٣٢/٢٩ .

(٢) روح المعانى ١٣٢/٢٩ ، الكشاف ١٨٧/٤ .

والمعنى : أن أصحاب اليمين لما تساءلوا بعضهم بعضاً أو بأن سألوا غيرهم عن المجرمين ، قال المسئولون فى جواب من سألهم قلنا لهم " ما سلككم فى سقر " فأجابوا بأن قالوا " لم نكن من المصلين " إلخ إلا أن الكلام جاء على الحذف والاختصار كما هو نهج التنزيل فى غرابة نظمه (١) ، هذا هو رأى الزمخشرى زمن نهج ، وفيه تعسف .

قال الشيخ أبو حيان : " والأظهر أن السائلين هم المتسائلون و " ما سلككم " على إضمار القول . أى يتساءلون عن المجرمين قائلين لهم بعد التساؤل " ما سلككم وسؤالهم سؤال توبيخ لهم وتحقير وإلا فهم عالمون ما الذى أدخلهم النار ، والجواب أنهم لم يكونوا متصفين بخصائل الإسلام من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ثم ارتقوا من ذلك إلى الأعظم وهو الكفر والتكذيب بيوم الجزاء (٢) ، وإيثار صيغة التساؤل للتكثير .

قوله تعالى : ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾

النظم البلاغى : "ما سلككم "بيان للتساؤل من غير حاجة إلى إضمار قول ، أو هو مقدَّر بقول وقع حالاً من فاعل يتساءلون قائلين أى شئ أدخلكم فى سقر ، وقيل : المسئول غير المجرمين كجماعة من الملائكة – عليهم السلام – " وما سلككم " إلخ حكاية قول المسئولين عنهم أى لما سأل أصحاب اليمين الملائكة عن حال المجرمين قالوا لهم نحن سألنا المجرمين عن ذلك وقلنا لهم : " وما سلككم فى سقر " ؟ إلى الآخر ن وكان يكفيهم أن يقولوا

---

(١) الكشاف ١٨٧/٤ ، حاشية زاده والبيضاوى معها ٥٧٧/٤ ، حاشية الشهاب ٢٧٩/٨ ، أبو السعود ٦١/٩ ، ٦٢ ، الدر المصون ٤٢٢/٦ .

(٢) البحر المحيط ٣٨٠/٨.

حالهم كيت وكيت لكن أتى بالجواب مفصَّلاً حسب ما سألوه ليكـــون أثبـــت للصدق وأدلَّ على حقيقة الأمر ففى الكلام حذف واختصار (١) .

و " ما " فى قوله : " ما سلككم " استفهامية ، والمراد بالاستفهام التوبيخ والتعجيب من حالهم وإلا فالمؤمِنون عالمون بسبب دخولهم النار .

و " سلككم " من السلك بمعنى الإدخال فى الشئ كإدخال الخيط فى سمِّ الخياط دلالة على تمكُّنهم من جهنم وتمكُّنها منهم بقرينة ذكر حرف الجـــرِّ " فى " الدالَّة على تمكين الظرف من المظروف .

وقد تناول هذه الآية الدكتور المطعنى : تناولاً دقيقاً من الواجـــب أن نذكره فقد قال : " وللإمام الزمخشرى – وغيره – كلامٌ فى هـــذا الاســـتفهام نتفق معه فى بعضه ونختلف معه فى بعض آخر ، وأما الذى نتفق معه فيـــه فهو حمله الاستفهام على التوبيخ والتحسير ، وهذا كلام طيب ، ومـــا الـــذى نختلف معه فيه . " ما سلككم فى سقر " ؟ هذا السؤال موجَّه فى ظاهر النظم إلى المجرمين ، والسائل هم أصحاب اليمين ، وهذا ما يدلُّ عليـــه الـــنَّظم ، ولكنَّ الإمامَ الزمخشريَّ أهمل ظاهر النظم مع قوة الدلالة ،وذهـــب إلـــى أن أصحاب اليمين لمَّا سألوا عن المجرمين ، أو تساءلوا عنهم قال لهم آخـــرون إننا سألناهم مثل سؤالكم فقالوا لنا : لم نك من المصلين " إلخ . والذى حمـــل الإمامَ الزمخشريَّ على هذا ادعاؤه أن النظم غير مطابق للجواب لأن القرآن حكى أن أصحاب اليمين يتساءلون عن المجرمين ، أى يسأل بعضهم بعضاً أو يسألون غيرهم ، فكيف يصحُّ أن يكون جواب المجرمين لأصحاب اليمين؟

---

(١) روح المعانى ١٣٢/٢٩ ، حاشية الشهاب ٢٧٩/٨ .

وقد تابع الإمامُ النسفيُّ الإمامَ الزمخشريَّ على هذا كما ذكره بعض الأئمة ولم يرتضه (١) . ثم يقول أيضاً : وخلاصة ما حمل الإمامَ الزمخشريَّ على هذا التأويل أمران : - الأول - أن أصحاب اليمين في الجنة والمجرمين فى النار الثانى : كيف يصحُّ نقلُ الحديث من الغيبة إلى الخطاب ، ونقول : لا مانع أبداً أن يكون خطاب أصحاب اليمين موجَّهاً إلى أصحاب النار فى - ما سلككم فى سقر - ولا مانع قطُّ أن يكون خطاب المجرمين - قالوا لم نكُ من المصلين - وما عطف عليه موجَّهاً إلى أصحاب اليمين مباشرة بلا واسطة أما أن أصحاب اليمين فى الجنة والمجرمين فى النار فقد ورد فى سورة الأعراف الحوار الطويل المباشر بين أصحاب الجنة وأصحاب النار (٢).

ثم نراه يردُّ الأمر الثانى - انتقال الكلام من السؤال عنهم إلى سؤالهم - على الزمخشريِّ بقوله : " وأما كيف انتقل الكلام من سؤال عنهم إلى سؤال موجَّه إليهم ، فهذا جار - كما يعلم الإمامُ الزمخشريُّ - على أسلوب الالتفات من الغيبة إلى الخطابِ ، ولذلك نجزم بأن هذا السؤال والجواب عليه جرى مباشرة بين أصحاب اليمين وبين المجرمين . غاية ما فى الأمر أن فى الكلام حذفاً حاصله : فأطلع الله أصحاب اليمين على المجرمين وهم فى النار فقالوا لهم - ما سلككم فى سقر - ؟ - قالوا لم نك من المصلين - فهذا أولى ألف مرة مما ذهب إليه الإمامُ الزمخشريُّ مما بدا عليه التكلُّف أوضح ما يكون الوضوح (٣) . ثم يعضِّد رأيه برأى الإمام أبى حيان الذى أسلفناه .

---

(١) الكشاف ١٨٧/٤ ، تفسير النسفى /١٣٠٠ ، والبحر المحيط ٣٨٠/٨ ، البيضاوى ٤٠١/٥ ، التفسير البلاغى للاستفهام ١٧/٤ ، ٣١٨ .

(٢) الأعراف /٤٤ ، ٥٢ ، التفسير البلاغى ٣١٨/٤ .

(٣) الأعراب /٤٤، ٥٢ ، التفسير البلاغى ٣١٨/٤ .

وقوله : " ما سلككم " سؤال عن السبب ، وهو حريٌ أن يكون من الفنِّ البديعيِّ المسمَّى بـ " تجاهل العارف " وهو – كما يقول البلاغيون – : سوق المعلوم مساق غيره لنكته (١) لأن أصحاب اليمين يعرفون الأسباب التى سلكت المجرمين فى سقر – وإنما سألوهم ليقرِّروهم بذنوبهم التى اقترفوها فى الحياة الدنيا ، توبيخاً لهم عليها وتَحسيراً وتبكيناً لهم ، وهذا أولى من حمل الاستفهام على حقيقته ، ثم التماس العذر لأصحاب اليمين كيف يسألون المجرمين عن أسباب دخولهم النار وهم يعرفونها ؟ الذاهب إلى هذا الرأى التمس لهم عذراً بأنهم نسوا ما كان من المجرمين من كفر وعناد فى الحياة الدنيا وهذا لا يصحُّ ، لأن القرآن حكى عنهم أنهم يتساءلون عن المجرمين ، فأين النسيان إذاً (٢) ، وقضية النسيان التى ذكرها الدكتور المطعنى هى من إشارات الشيخ الطاهر ابن عاشور فى ذلك (٣) .

والفعل " سلككم " استعارة تبعية للمزج وشدة التقارب والحبس فى جهنم والاحتباس فيها كحبس حبة العقد فى الخيط بعد سلكها فيه ، والجامع الضَّمُّ والاستقرار ، والقرينة ذكر حرف الجرِّ " فى " وفى هذه الاستعارة إيماء وإشارة إلى حقارتهم وتضاؤلهم والاستخفاف بهم ، حيث أفادت هذه الاستعارة تشبيههم بالحبَّات فى خفتْها وضآلة حجمها ، واستخدام حرف الجرِّ " فى " إيذان بغيابهم واستقرارهم فى دركات الجحيم ، وتمكُّنهم منها حتى لا يرى منهم أثر ظاهر ، والعياذ من سوء المصير (٤)

---

(١) المفتاح /٢٠٢ ، افيضاح ٨٤/٦ تد خفاجى .

(٢) التفسير البلاغى للاستفهام ٣١٩/٤ ، التحرير والتنوير ٣٢٦/٢٩ ، ٣٢٧ .

(٣) التحرير والتنوير ٣٢٦/٢٩ .

(٤) التفسير البلاغى للاستفهام ٣١٩/٤ بتصرف .

فالسؤال هنا لزيادة التبكيت لأولئك المجرمين وتوبيخهم ، وإدخال الألم والحسرة على نفوسهم ، مع إيجاز الحذف الكامن فى قوله : " يتساءلون . عن المجرمين . ما سلككم فى سقر " أى قائلين لهم : " ما سلككم فى سقر " ؟ فحذف اعتمادا على فهم المخاطبين .

قوله تعالى : ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ. وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ. وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ. وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ. حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ .

النظم البلاغى : قوله : " قالوا لم نك " إلخ جواب عن السؤال الوارد فى قوله : " ما سلككم فى سقر " ؟ وبيان الأسباب التى أدَّت بهم إلى هذا الجحيم ، أجابوا بأربعة أجوبة مبينين بها أسباب الزج بهم فى النار وسلكهم فيها إذ إنهم ما ظنُّوا إلا ظاهر الاستفهام فذكروا –

كما يقول الشيخ الطاهر ابن عاشور : أربعة أسباب هى أصول الخطايا وهى : أنهم لم يكونوا من أهل الصلاة فحرموا أنفسهم من التقرب إلى الله ، وأنهم لم يكونوا من المطعمين المساكين وذلك اعتداء على ضعفاء الناس بمنعهم حقَّهم فى المال ، وأنهم كانوا يخوضون خوضهم المعهود الذى لا يعدو عن تأييد الشرك وأذى الرسول – ﷺ – والمؤمنين ،أنهم كذَّبوا بالجزاء فلم يتطلَّبوا ما ينجيهم (١) وكان يكفى فى جوابهم أن يقولوا : إنا ما كنَّا مؤمنين ، فجاءت هذه الأجوبة كناية عن عدم إيمانهم ، ولكنهم سلكوا بها طريق الإطناب الذى يناسب مقام التحسُّر والتلُّهف على فوات ما فات ، فكأنهم قالوا لم نكن من المؤمنين لأن أهل الإيمان اشتهروا بأنهم أهل الصلاة، وبأن فى أموالهم حقّاً معلوماً يسمىَّ زكاة ، وبأنهم مؤمنون بأن هناك آخرة وبعثاً وحشراً ونشراً فيصدّقون بهذا اليوم الموسوم بأنه يوم الجزاء ،

---

(١) التحرير والتنوير ٣٢٧/٢٩ .

ويصدّقون الرسل الذين أبلغوهم مراد الله منهم . فهذه الأمور الأربعة مرتبة منهم على حسب درجاتها فترك الصلاة لأن بها طهارة الروح والبدن وهى الأساس التالى للشهادة بالنسبة للمؤمنين الموحدِّين وبها يعرف صحيح الدين من غيره ، وثم تليها الزكاة وهى طهارة المال والنفس ، والإنسان بها شحيح وعليها ضنين ، ولا يخرجها إلا طاهر النفس مَنْ هو مطمئن إلى مكافئة الأعلى وأنها مضاعفة ، وهؤلاء المذكورون " المجرمون " لا علاقة لهم بذلك ، ثم يأتى دور الأباطيل والزعامات الفارغة وهى خليقة بهم بعكس المؤمنين فهم هيِّنون ليِّنون ، ويوم القيامة والجزاء لا يؤمن به ولا يعتقد وقوعه إلا مَنْ أذعنت نفسه له ، واطمأن قلبه إليه . أما هؤلاء المجرمون فهم بالضدِّ من ذلك ظنّاً منهم أنهم أبناء الله وأحباؤه .

وقوله : " نخوض " استعارة تبعية استعيرت للحديث المتكرر وهى من الخوض أى الدخول فى الماء فاستعيرت هنا للتمادى فى الباطل ، وهى أبلغ فى موطنها للدلالة على انهماكهم مع أهل الغواية والضلالة ، والمراد بالخوض هنا كثرة الكلام بما لا ينبغى من الباطل وشبهه ، وهذا تحذير لكل من تسوّل له نفسه أن يسرع فى الإجابة عما لا يعلمه .

وقوله : " مع الخائضين " إشارة إلى عدم اكتراثهم بالباطل ومبالاتهم به فكأنهم قالوا : وكنا لا نبالى بباطل .

<u>وقد جعل القشيرى</u> : جواب المجرمين على صيغة استفهام منهم فقال : " هؤلاء يتساءلون عن المجرمين ، ويقولون لأهل النار إذا حصل لهم إشراف عليهم : ما سلككم فى سقر ؟ قالوا : ألم نك من المصلين ؟ ألم نك نطعم المسكين ؟ (١)

---

(١) لطائف الإشارات ٣/٤٢٥ .

وفي نظري : أن هذا خروجُ عن أسلوب القرآن الذى أثبت عدم حصول هذه الأمور منهم باعترافهم أنفسهم ، وكيف تتأتَّى هذه الإجابة لأن معنى ذلك أنهم يقررّون السائلين بفعل ذلك ، وليس فى الآخرة سخرية ولا استهزاء إذ لا مقام لمثل هذا .

وقوله : " وكنا نُكذِّب بيوم الدين " من ذكر الخاصّ بعد العامّ . خصَّه بالذكر مع أنه داخل فى حيِّز الخوض بالباطل مع الخائضين لبيان تعظيم هذا الذنب فهو أعظم جرائمهم وأفحشها .

قال العلاَّمة الزمخشريُّ : " فإن قلت : لم أخَّر التكذيب وهو أعظمها ؟ قلت : أرادوا أنهم بعد ذلك كلِّه كانوا مكذِّبين بيوم الدين تعظيماً للتكذيب (١) .

ويرى بعضُ المفسرين : أن فى الآية دليلاً على أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة (٢)

وقد نفى سماحة الشيخ الطاهر ابن عاشور : مخاطبة الكفار بفروع الشريعة فقال : وباعتبار مجموع الأسباب الأربعة فى جوابهم فضلاً عن معنى الكناية ، لم يكن فى الآية ما يدلُّ للقائلين بأن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة (٣) .

---

(١) الكشاف ١٨٧/٤ .

(٢) الإنصاف على الكشاف ١٨٧/٤ ، تفسير البيضاوى ٤٠٢/٥ ، حاشية الشهاب ٢٧٩/٨ ، غرائب القرآن ٣٢٧٢/٤ ، حاشية الجمل ٤٤٤/٤ ، أضواء البيان ٦٢٦/٨ .

(٣) التحرير والتنوير ٣٢٧/٢٩ .

ومجئ الأفعال الأربعة " نك – نك – نخوض – نكذّب " بأسلوب المضارعة إيذان بأن ذلك عادتهم ودأبهم ، وأنه كان متجدّداً منهم طول حياتهم ، فهم مستمروُّن على هذه الخصال السيئة لا يفارقونها .

وقوله : " حتى أتانا اليقين " غاية للأمور الأربعة السابقة ، والإتيان هنا استعارة لحصول اليقين بعد أن لم يكن حاصلاً على حدٍّ زعمهم ، شُبِّه حصول اليقين ووقوعه بعد الانتقاء بالمجئ بعد المغيب ، والمراد : حتى حصل لنا العلم بأن ما كنّا نكذّب به ثابت واقع لا محالة ، ويطلق " اليقين " أيضاً على الموت وذلك لأنه معلوم حصوله لكلٍّ حيٍّ . فجملة " حتى أتانا " على هذا التقدير غاية للأمور الأربعة السابقة ؟، وعلى التقدير الأول غاية لجملة " نكذّب بيوم الدين " والمراد : كنّا نفعل ذلك مدّة حياتنا كلها ، ويجوز أن يكون فى "اليقين " استعارة مكنية حيث شُبِّه بإنسان يأتى ثم حُذِفَ ودُلّ عليه بشئ من لوازمه وهو الإتيان .

وفى التعبير فى جانب إتيان اليقين بالفعل الماضى للدلالة على تحقيق وقوعه وحصوله ، ولما كان بمعنى الموت كان معناه : فرأينا به ما كنا ننكره عياناً .

<u>وفى الآية كما يقول الشيخ الطاهر ابن عاشور</u> : إشارةٌ إلى أن المسلم الذى أضاع إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة مستحقٌ حظّاً من سقر على مقدار إضاعته ، وعلى ما أراد الله من معادلة حسناته وسيئاته وظواهره وسرائره وقبل الشفاعة وبعدها (١)

<u>وقد اعترض ابن عطية على كون المراد بـ</u> " اليقين " الموت . فقال : و – اليقين " معناه عندى صحة ما كانوا يكذّبون به من الرجوع إلى الله

---

(١) التحرير والتنوير ٣٢٨/٢٩ .

تعالى والدار الآخرة ، وقال المفسِّرون : – اليقين – الموت ، وذلك عندى هنا متعقَّبٌ لأن نفس الموت يقين عند الكافر وهو حىٌ فإنما – اليقين – الذى عَنوَا فى هذه الآية الشئ الذى كانوا يكذِّبون به وهم أحياء فى الدنيا فتيقنوه بعد الموت ، وإنما يتفسَّر – اليقين – بالموت فى قوله تعالى – واعبد ربَّك حتى يأتيك اليقين – (١) .

وبين الآيات : " الخائضين – الدين – اليقين " ما يعرف بالسجع المرصَّع ، وقد نوَّهنا إليه سابقاً ، وهو : " توازن الألفاظ مع توافق الأعجاز أو تقاربها(٢)

قوله تعالى : ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ. فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ. كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ. فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ .

النظم البلاغى : قوله : " فما تنفعهم " تفريع على قوله تعالى : " كلُّ نفس بما كسبت رهينة " والمعنى : فهم دائمون فى الارتهان فى ستر ، وهذا بيان لغاية خسرانهم فحرم الله تعالى هؤلاء المجرمين الكافرين أن تنفعهم الشفاعة فعسى أن تنفع الشفاعة المؤمنين على أقدارهم ، وذلك أن فائدة زيادة درجاتهم أو العفو عن صغائرهم ، وهذه الآية من قبيل ما يسمِّيه علماء البلاغة بـ " نفى الشئ بإيجابه وأرادوا به " أن يوقع المتكلم الكلام على أثبات شئ وينفيه فى كلام واحد وخطبة واحدة أو بيت واحد (٣)

---

(١) الحجر /٩٩ ، المحرر الوجيز ٣٩٩/٥ .

(٢) جواهر البلاغة /٣٣٢ .

(٣) الفوائد المشوق /١٦١ ، وقد سمَّاه السلب والإيجاب " جواهر البلاغة /٣١٥ .

أو كما يقول الأستاذ الدرويش : هو أن تذكر كلاماً يدُل ظاهره أنه نفى لصفة موصوف وهى نفى للموصوف أصلاً (١) ثم يقول موضّحاً ذلك على الآية التى معنا : " وهنا ليس المعنى أنهم يشفع لهم فلا تنفعهم شفاعة من يشفع لهم، وإنما المعنى نفى الشفاعة فانتفى النفع أى لا شفاعة شافعين لهم فتنفعهم ، وتخصيصهم بانتقاء شفاعة الشافعين يدلُّ على أنه قد تكون شفاعات ينتفع بها(٢) .

فأخبر الله تعالى فى هذه الآية أن " شفاعة الشافعين " لا تنفعهم فتقرَّر من ذلك أن هناك شافعين ، والأحاديث فى ذلك كثيرة (٣) .

وأما ما ورد فى كتب المفسرين كابن عطية وغيره " يشفع الملائكة ثم النبيون ثم العلماء ثم الشهداء ثم الصالحون (٤) إلخ . فقد جاء فى سنن ابن ماجة ما نصه : " ثم العلماء ثم الشهداء – فيه دلالة على فضل العلماء ثم الشهداء ، لكن الحديث ضعيف ، ففى الزوائد فى إسناده عَلاَق بن أبى مسلم وهو ضعيف (٥) ، وأما ماروى أيضاً مثل : " يدخل الجنة بشفاعة رجلٍ من أمتى أكثرُ من نبى تميم . قيل يا رسول الله سواك قال سواى "

---

(١) إعراب القرآن وبيانه ٢٩٣/١٠ .

(٢) البحر المحيط ٣٨٠/٨ ،/ إعراب القرآن وبيانه٢٩٣/١٠ ، الأساليب الإنشائية /٩٧د / صباح دراز .

(٣) صحيح مسلم ١٧٢/١ – ١٩١ ، الإيمان إثبات الشفاعة ، سنن ابن ماجه ٥٢١/٤ – ٥٢٨ ب ذكر الشفاعةٍ سنن أبى داود ٢٣٦/٤ .

(٤) المحرر الوجيز ٣٩٩/٥ .

(٥) سنن ابن ماجه ٥٢٦/٤ منفرداً به .

فقد وصفه الترمذيُّ بالحديث الحسن الصحيح الغريب من حديث عبد الله ابن أبى الجدعاء (١) ، وكذلك حديث الحسن البصرى قال قال رسول الله – ﷺ – : " يشفع عثمان بن عفان يوم القيامة فى مثل ربيعة ومضر " قال أبو عيسى الترمذى حديث حسن " (٢) .

قال الطبرى : " أى فما يشفع لهم الذين شفعَّهم الله فى أهل الذنوب من أهل التوحيد ، فتنفعهم شفاعتهم ، وفى هذه الآيه دلالة واضحة على أن الله تعالى ذكره مُشفِّعُ بعضَ خلقه فى بعض (٣) ففى الآية إيماءُ إلى ثبوت الشفاعة لغيرهم يوم القيامة على الجملة ، والتعريف فى " الشَّافعين " لاستغراق الجنس وهو أبلغ وأنسب بالمقام .

وقوله تعالى : " فما لهم عن التذكرة " تفريع للتعجيب من إصرارهم على الإعراض عما فيه تذكرة على قوله سابقاً : " وما هى إلا ذكرى للبشر " وجئ باسم التذكرة الظاهر دون أن يؤتى بضمير كأن يقال : عنها معرضين، لئلا يختصَّ الإنكار والتعجيب بإعراضهم عن تذكرة الإنذار بسقر ، بل المقصود التعميم لإعراضهم عن كل تذكرة وأعظمها تذكرة القرآن كما هو المناسب للإعراض (٤) .

ولما ذكر الله تعالى قبائح المجرمين وشنائعهم عاد سبحانه بالتوبيخ والتقريع عليهم فقال تعالى : " فما لهم عن التذكرة معرضين " فما لهؤلاء المشركين معرضين عن القرآن الكريم وآياته وما فيه من المواعظ البلغية

---

(١) عارضة الأحوذى ٢٦٨/٩ ك صفة القيامة رقم ٢٤٤٣ .
(٢) السابق نفسه ح رقم ٢٤٤٤ .
(٣) جامع البيان ١٦٦/٢٩ ، أضواء البيان ٦٢٧/٨ .
(٤) التحرير والتنوير ٣٢٩/٢٩ .

والنصائح والإرشادات المفيدة الهادئة ؟ وقد جاءت هذه الآية للتعجيب من إعراض الكفار عن التذكُّر والتدبُّر ، وأسلوب "مالهم " استفهامىٌ إنكارىٌ مستعملُ فى التعجيب من غرابة حال هؤلاء المجرمين الكفرة حتى استحقوا أن يستفهم عن هذه الحالة المستفهمون وهو أسلوبٌ مجازىٌ من قبيل المجاز المرسل بعلاقة اللزوم وهو إنكار إعراضهم بإنكار السبب الحامل على هذا الإنكار ، والمراد : لا سبب لهم يصحُّ حتى يجعل إعراضهم عن الحقِّ صواباً .

" وإنكار السبب ونفيه يقتضى إنكار المسبَّب ونفيه ، وهو من الكنايات الموسومة بالطاقة والدِّقة ، وهو إنكار الواقع الذى هم عليه ويردف على هذا الإنكار التجهيل والتسفية (١) .

يقول الدكتور صبَّاح مبيناً أن التعبير بـ " مالى " يعدُّ : " إنكاراً لحال المتكلم بعده ، كناية عن إنكار الفعل من باب أولى ، وأنه قد جاء فى أساليب – مالى – إنكار وتعجيب من حال المخاطب أو من الحال الواقعة بعده عموماً وإنكار الحال التى ينحصر فيها الفعل إنكاراً للفعل على طريق الكناية ومدارج اللزوم العقلىٌ والترتيب النفسىٌ (٢) ثم يطبِّق هذا على الآية التى معنا فيقول : " كقوله تعالى عن مشركى العرب : – فما لهم عن التذكرة معرضين كأنهم حمر مستنفرة . فرَّت من قسورة – تصويراً ساخراً لإعراضهم فى هيئات قافزة نافرة مندفعة هلعة كحمر الوحش انضاف إلى نفارها الذاتىٌ نفارُ

---

(١) التفسير البلاغى للاستفهام ٤/٣٢٠ .

(٢) الأساليب الإنشائية فى القرآن /١٤٣ .

حلع للقلوب أقوى من نفارها الطبيعى حين ترى وتسمع زئير القسورة الكاسر(١) .

ونراه فى موطن آخر يزيد الأمر وضوحاً فيقول : " والتعبير – مال – قد يصوِّر مع الأسلوب إثارة التعجيب إلى مداه ، وبخاصة حين يكون للألفاظ ظلال مديدة أو يتعانق التركيب مع صورة بيانية كقوله تعالى عن كفار قريش : – فما لهم عن التذكرة معرضين – الآيات . فقد جاءت الآية بعد تساؤلات أصحاب اليمين للمجرمين : ما سلككم فى سقر – ثم اعترافات المجرمين المطولة باتهاماتهم وينتقل الأسلوب دون فاصل إلى ذات المجرمين فى الدنيا فإذا كان حال المجرمين هكذا فما لهم معرضين ، والاستفهام عن السبب إنكار وتعجيب من حالهم وهو الإعراض لغير شبب وهو تعجيب بالغ(٢) .

والفاء فى قوله : فما لهم " لترتيب إنكار إعراضهم عن القرآن بغير سبب على ما قبلها من موجبات الإقبال عليه والاتعاظ به من سوء حال المكذِّبين ، والآية نازلة فى كفَّار قريش حين نفروا من القرآن والتذكير بمواعظه ، والمعنى : لا شئ لهم فى الآخرة إذ أعرضوا عن القرآن فلم يؤمنوا به (٣) .

والجارُّ والمجرور " لهم " خبر عن " ما " الاستفهامية ، والتقدير : ما ثبت لهم ، أو أى شئ ثبت لهم ، " معرضين " حال من ضمير " لهم " والمعنى : يستفهم عنهم فى هذه الحالة العجيبة و " معرضين " وصف

---

(١) الأساليب الإنشائية /١٤٣ .

(٢) الأساليب الإنشائية /٢٦٠ .

(٣) روح البيان للبروسوى ٢٤١/١٠ ، زاد المسير ١٥٣/٨ .

للأشخاص أنفسهم فلا يصحُّ كونه وصفاً لأسباب الإعراض ، و " عن التذكرة " متعلقة بـــ " معرضين " والتقديم للعناية مع رعاية الفاصلة أى فإذا كان حال المكذِّبين به على ما ذكر فأىُّ شئ حصل لهم معرضين عـــن القـــرآن مـــع تعاضد موجبات الإقبال عليه وتآخذ الدواعى إلى الإيمان بـــه و " التـــذكرة " مصدر بمعنى التذكير أطلق على ما ذكرناه وهو القرآن للمبالغة (١) .

و " التذكرة " كناية عن الدعوة إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ، وسُميِّت الدعوة تذكرة إشارة إلى أن الحقَّ المدعوَّ إليه من الظهور بمكان يكفى فى الدعوة إليه مجرد التذكير كما يذكر الناس بشئ هو به عالم (٢) .

وقوله : " كأنهم حمر مستنفرة . فرَّت من قسورة " حال من الضـــمير المستكن فى " معرضين " فهى حال متداخلة ، والحال المتداخلة هى التى تلى حالاً سابقة فتأتى فى إثرها تكون موضِّحة لها ولا تنفصـــل إحـــداهما عـــن الأخرى ولا عن معناها ، وهذه الآية تصوِّر حالهم فى إعراضهم عن الحـــقِّ والتولى والابتعاد عن المنهج السوىِّ ، فهؤلاء يفرُّون من الداعى، ويعرضون عن الحقِّ ، ولكن هذا إعراض لا يزيدهم إلا حيرة وخوفاً فما أشبههم بهـــذه الحمر الوحشية النَّافرة الشاردة وهى تفرُّ من أسد خشية أن يفترسها ، وقـــد شُبِّهَت حالة إعراضهم المتخيلة بحالة فرار حمر نافرة مما ينفرها .

" وأنت تقرأ – حمر مستنفرة . فرت من قســـورة " بتـــوالى المقـــاطع المغلقة بعد المقاطع القصيرة المفتوحة فيخيَّل إليك أنك تسمع وقـــع أقـــدامها الهلعة على الصفا فى إيقاع متلاحق لاهث ، وصورة الحمر غطَّـــت علـــى

---

(١) روح المعانى ١٣٣/٢٩ ، حاشية الجمل ٤٤٤/٤.

(٢) التفسير البلاغى للاستفهام ٣٢٠/٤ .

الصورة الكلية فما عدت ترى أو تتخيل إلا حمراً مخطَّطَة الأديم مخلوعة الفؤاد مغرقَة فى النفار (١) ، والحمر كما قال ابن عباس – رضى الله عنهما – : هى حمار الوحش وهو شديد النفار إذا أحس بصوت القانص فهو مثل فى النِّفار وشدَّة الفرار ، وهذا من باب تشبيه المعقول بالمحسوس ، وقد كثر فى الشعر العربى وصف النفرة وسرعة السير والهروب بالوحش من الحمر أو البقر الوحشية إذا احسَّت بما يخيفها ، وخذ مثلاً قول لبيد بن ربيعة العامرى يصف ناقته فى سرعة سيرها ببقرة وحشية وقد أفرعها الصياد(٢).

وتسمَّعت رِزَّ الأنيس فراعَهَا * * عن ظَهْرِ غَيْبٍ وَالأَنِيسُ سِقَامُهَا

" وقد جاء – معرضين – حال بعدها – حمر مستنفرة – حال منها فهى حال متداخلة أبرزتهم فى تشبيه عجيب أى مشبَّهين حمراً أى وحشية وهى صورة نافرة ساخرة قافزة فقد صوَّرهم بالحمر الوحشية وهى أشدُّ حيوان الصحراء نفاراً ، ولذلك كان أكثر تشبيهات العرب للإبل فى سرعة السير بالحمر فى عدوها إذا وردت ماءً فأحسَّت ما يريبها ، والحمر فى دلالته القرآنية خاصٌّ بالوحش منها دون الحمير الخاصِّ بالمستأنس (٣) .

والسين والتاء فى " مستنفرة " للمبالغة فى الوصف من استنفر بمعنى نفر كعجب واستعجب ، والأحسن أن استفعل للمبالغة كأنَّ الحمر لشدة العدو تطلب النفار من نفسها ، والمعنى مشبَّهين بحمر نافرة جدًّاً (٤)

---

(١) الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية /١٤٣ .

(٢) ديوانه /١٧٣ ط : دار صادر بيروت ، شرح المعلقات للتبريزى /١٨٤ ويروى توجسَّت ، ورزَّ أو ركز هو الصوت الخفىُّ .

(٣) الأساليب الإنشائية فى القرآن /٢٦٠ ، ٢٦١ .

(٤) روح المعانى ١٣٤/٢٩ ، أبو السعود ٦٢/٩ ، ٦٣ .

"ثم إن هذه الحمر مستنفرة بذاتها حتى كأنها تطلب النِّفار من أنفسها لأنه من طبعها فإذا انضمَّ إلى هذا النفار الذاتى مثيرٌ مُرْعِبٌ خارجىٌّ هو القسورة: الأسد شديد القسر عظيم البطش أخرج أقصى نفارها خوف الموت أنها تتحول مثلاً للنفار بالطائر اللأَّهث وقد سيَّطرت هذه الصورة على الأسلوب حتى ما تجد كفاراً معرضين بل حمراً نافرة هلعة ذمَّاً وتهجيناً وتعجيباً (١)

ففى هذه الآية شُبِّه المدعوون فى إعراضهم عن الدعوة والتذكرة بالحمر الفارَّة من الصيادين أو الأسد ، وقد شُبِّه أيضاً العالمُ غيرُ المنتفع بعلمه بالحمار الذى يحمل أسفار العلم كما فى قوله تعالى : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ (٢) فهما تشبيهان بالداعى والمدعو إذا لم تنفعه الدعوة .

قال العلاَّمةُ الزمخشرىُّ : والمستنفرة : الشديدة النِّفار كأنَّها تطلب النِّفار من نفوسها فى جمعها له وحملها عليه ، شبههم فى إعراضهم عن القرآن واستماع الذكر والموعظة وشرادهم عنه بحمر جُدَّت فى نفارها ممَّا أفزعها ، وفى تشبيههم بالحمر مذَّمة ظاهرة وتهجين لحالهم بيِّن ، وشهادة عليهم بالبلة وقلَّة العقل ، ولا ترى مثل نفار حمير الوحش واطرادها فى العدو إذا رابها رائب ، ولذلك كان أكثر تشبيهات العرب فى وصف الإبل وشدة سيرها بالحمر وعدوها إذا وردت ماءً فأحسَّت عليه بقانص (٣)

---

(١) الأساليب الإنشائية /٢٦١ ، أبو السعود ٦٣/٩ ، نظم الدرر ٧٧/٢١ .

(٢) الجمعة /٥ .

(٣) الكشاف ١٨٨/٤ .

والتشبيه فى الآية من قبيل التشبيه المرسل التمثيلى لانتزاع الوجه فيه من متعدِّد مع ذكر آداة التشبيه تصويراً ساخراً لحالتهم هذه .

وقرأ نافع وابن عامر والمفضَّل عن عاصم : " مستنفَرة " بفتح الفاء ، والمعنى : استنفرها أى فزّعها الأسد ، وقرأ الجمهور بكسرها – الفاء – نافرة ويناسب الكسر قوله – فرَّت – (١) ، وهذه الجملة " فررَّت من قسورة "بيان لسبب نفورها .

قال الإمام الفخر : " قال أبو على الفارسى : الكسر فى – مستنفِرة – أولى ألا ترى أنه قال – فرَّت من قسورة – وهذا يدلُّ على أنها هى استنفرت، ويدلُّ على صحة ما قال أبو على أن محمد بن سلام . قال سألت أبا سوار الغنوى ن وكان أعرابياً فصيحاً ، فقلت كأنهم حمرٌ ماذا ؟ فقال : مستنفرة طردها قسورة ، قلت : إنما هو فرَّت من قسورة ، قال أفرَّت ؟ قلت نعم ، قال فمستنفِرة إذاً (٢) .

و " القسورة " من القسر والغلبة والقهر . قيل : هو الأسد ، وقيل : الرَّامى ، وقيل : الصيَّائد (٣) ، وهو لا واحد له من لفظه ، والعرب تطلق هذا على كلِّ ضخم شديد ، وقيل : هو اسم جمع قسور وهو الرَّامى ، أو هو جمع على خلاف القياس ، وذلك أن ليس قياس فعل أن يجمع على فعلة ، وهذا رأى جمهور المفسرين عن ابن عباس وعكرمة ومجاهد . فيكون التشبيه جارياً على مراعاة الحالة المشهورة فى كلام العرب ، وقيل : القسورة مفرد

---

(١) البحر المحيط ٢٨٠/٨ ، التحرير والتنوير ٣٣٠/٢٩ ، روح المعانى ١٣٤/٢٩ ، القراءات العشر المتواترة /٥٧٧ الشيخ محمد كريم راجح .

(٢) التفسير الكبير ٢١٣/٣٠ .

(٣) المفردات /٤٠٣ مادة " قسر " .

وهو الأسد ، وقال ابن عباس : إنها الأسد بالحبشية ، فيكون اختلاف قول ابن عباس اختلافاً لفظياً ، وعنه : أنه أنكر أن يكون قسور اسم الأسـد ، فلعلـة أراد أنه ليس فى أصل العربية ، وعلى هذا فهو تشبيه مبتكر لحالة إعراض مخلوط برعب مما تضمنتّه قوارع القرآن فاجتمع فى هذه الجملة تمثـيلان ، وإيثار لفظ – قسورة – هنا لصلاحَيته للتشبيهين مع الرعاية على الفاصلة (١)

وعلى هذا قال ابن عباس وأبو هريرة – ﷺ – : الحمر الوحشـية إذا عاينت الأسد هربت منه ، كذلك هؤلاء الكفار إذا سمعوا النبى – ﷺ – يقرأ القرآن هربوا منه ، شبهّهم بالحمر فى البلادة والبله ، وقال ابن الأعرابـى : القسورة أول الليل ، والمعنى فرّت من ظلمة الليل ولا شئ أشدّ نفـاراً مـن حمر الوحش ، ولذلك شبهّته بها العرب فى سرعة سيرها وخفتها (٢) .

يقول د / فضل عباس : " إن التشبيه هنا مع ما فيه من إبداع التصوير وروعته ، نجد فيه كذلك من دقة التعبير وموضوعيته ،وذلك لأنهم شَـبِّهوا بالحمر ، والحمر مثال فى البلادة ثم هم قد فرُّوا من قسورة ، وفى هذا إيحاء أن الدّاعى إلى الحقّ حرىُّ به أن يكون أسداً فتكون الشـجاعة مـن أبـرز صفاته، وشتّان بين ما فرّ من أجله هؤلاء وبين ما تفرّ مـن أجلـه الحمـر المستنفرة ، أليسوا أضلّ من الحمر سبيلاً ؟ وانظر إلى كلمة – مسـتنفرة –

---

(١) يراجع فى ذلك كله البحـر المحـيط ٣٩٠/٨ ، روح المعـانى ١٣٤/٢٩ ، تفسـير الخازن١٨٠/٦ ، التحرير والتنوير ٣٣٠/٢٩ ، الدر المصون ٤٢٢/٦ ، زاد المسير ١٥٤/٨ ، لطائف الإشارات ٤٢٥/٣ .

(٢) البحر المحيط ٣٨١/٨، مجمع البيان ١١٩/٢٩ ،تفسير الخازن ١٨٠/٦ .

وما فيها من السين والتاء ، وكلمة – فرَّت – كل هذا وغيره من الخصائص التى لها عملها فى النفس وتأثيرها فى القلب (١) .

قوله تعالى : ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَى صُحُفًا مُّنَشَّرَةً. كَلا بَل لا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ﴾ .

النظم البلاغى : قوله : " بل يريد " إضرابٌ انتقاليٌ عن محذوف هو جواب الاستفهام السابق " فما لهم عن التذكرة معرضين " كأنه قيل : فلا جواب لهم عن هذا السؤال أى لا سبب لهم فى الإعراض بل يريد ، وهذا بيان لذكر حالة أخرى من أحوال عناد هؤلاء . فقد روى المفسِّرون : أن أبا جهل وجماعة من قريش قالوا لرسول الله – ﷺ – إن سرَّك أن نتابعك فأتِ كلَّ واحد منا بكتب من السماء عنوانها من ربِّ العالمين إلى فلان نؤمر فيها باتباعك فنزلت .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن السُّدِّى عن أبى صالح قال : قالوا إن كان محمد صادقاً فليصبح تحت رأس كل رجل منا صحيفة فيها براءة وأَمَنة من النار ، وقيل : كانوا يقولون بلغنا أن الرجل من بنى إسرائيل كان يصبح مكتوباً على رأسه ذنبه وكفارته فأتنا بمثل ذلك (٢).

فقوله : " بل يريد " عطف على مقدَّر يقتضيه المقام . كأنه قيل : لا يكتفون بتلك التذكرة ولا يرضون بها بل يريد كلُّ واحد منهم أن يؤتى قراطيس تنشر وتقرأ غضَّة طرية لم تطو بعد كالكتب التى يتكاتب بها ، وهذا من أفانين تكذيبهم بالقرآن منزَّل من عند الله تعالى .

---

(١) البلاغة فنونها وأفنانها " علم البيان /٩٦:

(٢) الكشاف ١٨٨/٤، روح المعانى ١٣٤/٢٩ ، الجامع لأحكام القرآن ٨١/١٩ ، فتح القدير ٤٠٩/٥ ، التفسير الكبير ٢١٣/٣٠ ، التحرير والتنوير ٣٣١/٢٩ .

وجاء قوله : " صحفاً" جمعاً لوجهين : إما لأن القوم سألوه - ﷺ أن يكون كلُّ أمر أو نهى فتأتى الواحد منهم فى شأنه صحيفة خاصة به ، وإما سألوا أن تأتى كلَّ واحد منهم صحيفة باسمه وكانوا جماعة متفقين . فجمع لذلك قوله : " صحفاً " فكأن الصحف جمعيها جاءت لكل امرئ منهم ، و " منشَّرة " أى مفتوحة مقروءة كالكِتب الظاهرة المكشوفة ، فقد أرادوا بهذا أنهم لا يكتفون بصحيفة مطوية لا يعلمون المكتوب فيها ، والصيغة فى " منشَّرة " صيغة مبالغة فهى منشورة ، والمبالغة فى اللفظ واردة على ما يقتضيه الفعل " نَشَر " المجرَّد الثلاثى من كون الكتاب مفتوحاً واضحاً من الصحف المتعارفة ، وقيل : المعنى أن يذكر بذكر جميل ، فجعلت الصحف موضع الذكر مجازاً مرسلاً بعلاقة الآلية . كأن الصحف صارت آلة يذكر بها الواحد منهم .

وقرأ سعيد بن جبير " صُحْفاً مُنْشَرة " بإسكان الحاء من " صحفاً " وبالتخفيف من" منشرة " شُبِّه نشر الصحيفة بإنشار الله تعالى فَعُبِّر عنه بـ " مُنْشَرة " من أنشرت ، والمحفوظ فى الصحيفة والثوب " نَشَر " مخففاً ثلاثياً وفى الميت أنشره (١) .

<u>يقول الشيخ الصابونى</u> : " أى بل يطمع كلُّ واحد من هؤلاء المجرمين أن ينزل عليه كتاب من الله كما أنزل على محمد - ﷺ - ويريد أن يتنزَّل عليه الوحى كما تنزَّل على الرسل والأنبياء ، والغرض من الآية بيان إمعانهم فى الضلالة وكأنه يقول : دع عنك ذكر إعراضهم وغباوتهم ، ونفارهم نفار العجماوات مما فيه خيرهم وسعادتهم ، واستمع لما هو أعجب

---

(١) الكشاف ١٨٨/٤ ، البحر المحيط ٣٨١/٨ ، الجامع لأحكام القرآن ٨١/١٩ .

وأغرب ، وذلك طمع كل فرد منهم أن يكون رسولاً يوحى إليه ، وهيهات أن يصل الأشقياء إلى مراتب الأنبياء (١) .

وقوله : " كلاَّ بل لا يخافون الآخرة " ردع عن الإرادة و " بل " إضراب انتقالى لبيان سبب هذا التعنُّت ، وأفادت " كلاَّ" الرَّدع والإبطال لظاهر كلامهم ومرادهم منه ، والزجر لهم عن اقتراح الآيات ، والرَّدع عن ذلك ؟، والمعنى لا يكون لهم ذلك فإنهم إنما اقترحوها تعنُّتاً وعناداً لا هدى ورشاداً " بل لا يخافون الآخرة " لاستهلاكهم فى محبَّة الدُّنيا فلعدم خوفهم منها أعرضوا عن التذكرة لا لامتناع إيتاء الصحف ، فلمَّا لم يكن منهم خوف من النار لما اقترحوا الآيات بعد قيام الأدلة ، وذلك كائن منهم لجهلهم بالآخرة وما فيها من أهوال ، ولأنه لما حصلت المعجزات الكثيرة كفت فى الدلالة على صحة النبوة فطلب الزيادة إنما هو تعنت (٢) .

وقوله : " بل لا يخافون الآخرة " إضرابُ على كلامهم بإبطال آخر بحرف الإضراب " بل " ، والمراد : ليس ما قالوه إلا هروباً وتنصُّلاً فلو أُنْزِل عليهم كتابُ ما آمنوا وهم لا يخافون الآخرة فليرتدعوا وينزجروا عن مثل ذلك الطمع بل الحقيقة أنهم لا يصدِّقون بالبعث والحساب ، ولا يؤمنون بالنعيم والعذاب وهذا هو الذى أفسدهم وجعلهم يعرضون عن مواعظ القرآن.

والتعبير بـ " يخافون الآخرة " كناية عن عدم الإيمان بالآخرة بعدم الخوف منهم ، لأنهم لو آمنوا بها لخافوها إذ الشأن أن يُخَاف عذابُها إذ كانت إحالتهم الحياة الآخرة أصلاً لتكذيبهم بالقرآن (٣) .

---

(١) صفوة التفاسير ٢٩/٤٨٠، ٤٨١ .

(٢) تفسير الخازن ٦/١٨٠ ، ١٨١ ، حاشية الجمل ٤/٤٤٤ ، المحرر الوجيز ٥/٤٠٠ ، روح المعانى ٢٩/١٣٤ ، روح البيان ١٠/٢٤٢ .

(٣) التحرير والتنوير ٢٩/٣٣١ .

والتعبير بالفعل " يخافون " المضارع دلالة على تجدد عدم الخـــوف منهم وحدوثه شيئاً فشيئاً ودفعة دفعة ، فلا ارعـــواء ولا انزجـــار ، ولـــذلك أعرضوا عن التذكرة لا لامتناع إيتاء الصحف ، وقرأ أبو حيوة " تخـــافون " بتاء الخطاب على الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ، وقرأ الجمهـــور باليـــاء مسايرة للغيبة فى الآية السابقة – بل يريد كل أمرئ منهم – (١)الآية .

قوله تعالى : ﴿كَلا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ. فَمَن شَاء ذَكَرَهُ. وَمَا يَـــذْكُرُونَ إِلاَّ أَن يَشَاء اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ .

النظم البلاغى : قوله : " كلا إنه " ردع ثان للـــردع الـــذى قبلـــه ، والمعنى : لا يؤتون صحفاً منشَّرة ولا يُوْزَعون إلا بالقرآن ، وتكرار الردع والزجر لإعراضهم عن التذكرة فليس الأمر كما يريدون ويقولون ، وقيـــل : إنها استفتاحية بمعنى ألاَ أى أوردع لمن أنكرها أو إنكار لأن يتذكروا بها(٢)، ومعنى كونها استفتاحية " أن مكانها ابتداء الكلام وافتتاحه فالتنبيـــه معناهـــا والافتتاح مكانها ، وهى تستخدم فى المواضع التى تأتى تنبيهاً إلـــى قضـــايا إيمانية خطيرة تزيد المؤمن إيماناً بها وتواجه إنكار الكافر وتزلزل ما فى قلبه من شكٍّ وعناد (٣) .

وجملة " إنه تذكرة " تعليل للردع عن سؤالهم أن تتزل عليهم صحف منشَّرة بأن هذا القرآن تذكرة عظيمة ، وضمير " إنه للقـــرآن بأنـــه تـــذكير وموعظة ، أو للتذكرة لأنها بمعنى الذكر ، ومجئ " تذكرة " منونَّة للتعظيم ى تذكرة بليغة كافية ، أى تذكير للحقِّ وعدل إلى " تذكرة " للفاصلة .

---

(١) البحر المحيط ٣٨١/٨ .

(٢) حاشية الجمل ٤٤٥/٤ .

(٣) كلا ومقاماتها القرآنية /١٢٦ ، ١٢٧ بحث للدكتور السودانى .

وبعد أن بين الله تعالى أن إعراض هؤلاء المشركين لـيس بامتنـاع إتيان الصحف بل بعدم خوفهم من الآخرة يستأنف الكلام لينبِّه العقول ويلفت النظر إلى حقيقة القرآن فقال تعالى : - كلاَّ إنـه تـذكرة - أى القـرآن أو التذكرة فى قوله : - فما لهم عن التذكرة معرضين - فالقرآن تذكرة لما فيه من التذكير والإنذار والتحذير ، والقرآن ليس سوى تذكرة لهؤلاء المكـذِّبين تذكِّرهم بما يجب عليهم من الإيمان بالله وترك عبادة الأصنام ، وتتذرهم إن كذَّبوا واستكبروا عذاب يوم عظيم .فالآية تؤكِّد لهم أمر القرآن والوحى الذى أعرضوا عنه وأنه ليس سوى " تذكرة وإرشاد للبشر ليس له وصـف غيـر ذلك : فما هو سحر يؤثر ولا قول البشر كما زعموا فلماذا يعرضون عنـه ويتشاءمون ويرتابون فى نصحه ولم يطلب منهم محمـد - ﷺ - أجـراً ولا كلفَّهم عطاءً أو منصباً فهو محض خير لهم وكلُّ نفعه عائد عليهم (١) ووضع المضمر " أنه " موضع الظاهر أبلغ فى آداء المراد ليشمل القرآن أو التذكرة وليس فى وضع الظاهر نكتةٌ حتى يذكر صراحة .

وقوله : " فَمَنْ شاء ذكره " تفريع على قوله : " إنه تـذكرة " وهـو تعريض بالترغيب فى التذكُّر ، أى التذكُّر طوع مشيئتكم فإن شئتم فتذكَّروا ، والضمير الظاهر فى " ذكره " يجوز أن يعود إلى ما عاد إليه ضمير " أنه " وهو القرآن فيكون على هذا من باب الحذف والإيصال وهو : " أن يحـذف الجارُّ ، ثم يوصل الفعل إلى المجرور به (٢) أى ذكِّر به ، ويجوز أن يعـود الضمير إلى الله تعالى وإن لم يتقدَّم لا سمه ذكرٌ فى الآيات لا ستحضاره من

---

(١) تفسير جزء تبارك للشيخ عبد القادر المغربى /١٠٤ ط : دار الشعب سنة ١٩٥٧ م ، كلا ومقاماتها القرآنية /١٢٨ د : رفعت السودانى .

(٢) البرهان فى علوم القرآن ٣/٢١٥ .

المقام أى : فَمَنْ شاء ذكر الله فحذف لفظ الجلالة تعظيماً للمفعول الذى وقع عليه الذكر ، وضمير " شاء " راجع إلى " مَنْ " والمعنى : مَنْ أراد أن يتذكَّر ذكر القرآن ، وهو إنذار للناس بأن التذكُّر بالقرآن يحصل إذا شاؤوا التذكُّر ، والمشيئة تستدعى التأمُّل فيما يخلِّصهم من المؤاخذة على التقصير وهم لا عذر لهم فى إهمال ذلك (١) .

وقوله : " وما يذكرون إلا أن يشاء الله " معطوف على ما سبق " والجملة معترضة فى آخر الكلام تذييلاً لإفادة أن تعلمهم بهذه الحقيقة ، وضمير الجمع فى " يذكرون " يعود على الكفرة لأن الكلام واقع عليهم وهم مقصودون بذلك ، وردُّ عليهم فى إيتاء كلٍّ واحد منهم كتاباً يخصُّه ، وإما أن يعود على كل من يصلح منه التذكُّر والانتفاع ، ومرادُ الكلام هنا : وما يتَّعظون به إلا أن يشاء الله لهم الهدى فيتذكَّروا ويتَّعظوا ، وفيه تسلية للنبى – ﷺ – وترويح عن قلبه الشريف مما كان يخامره من إعراضهم وتكذيبهم له وقوله : " إلا أن يشاء الله " استثناء مفرَّغ من أعمِّ العلل أو من أعمِّ الأحوال أى وما يذكرون بعلة من العلل أو فى حال من الأحوال إلا بأن يشاء الله تعالى أو حال أن يشاء الله ذلك ، وهذا تصريح بأن أفعال العباد بمشيئة الله عزَّ وجلَّ بالذات أو بالواسطة ، فنفى تعالى الذكر مطلقاً واستثنى منه حال المشيئة المطلقة فيلزم أنه متى حصلت المشيئة يحصل الذكر فحيث لم يحصل الذكر علمنا أنه لم تحصل المشيئة (٢) .

<u>وقد حمل العلاَّمة الزمخشرىُّ المشيئة فى الآية</u> : على الإلجاء والقَسْر فيقول : " يعنى إلا أن يقسرهم على الذكر ويلجئهم إليه لأنه مطبوع

---

(١) التحرير والتنوير ٣٣٢/٢٩ .

(٢) روح المعانى ١٣٥/٢٩ ، حاشية الجمل ٤٤٥/٤ .

على قلوبهم معلوم لأنهم لا يؤمنون اختياراً (١) ، وقد ردَّ المفسِّرون مقالة الزمخشريّ هذه بأنها خروج عن الظاهر فقالوا : " ففيه ردُّ على المعتزلة وحملهم المشيئة على مشيئة القَسْر والإلجاء خروج عن الظاهر من غير قَسْر وإلجاء ، وهو تصريح بأن فعل العبد بمشيئة الله تعالى (٢) ، والمشيئة في قوله تعالى : " إلا أن يشاء الله " غير المشيئة الأولى في قوله تعالى : " فَمَنْ شاء ذكره " إذ لو كانت واحدة لتناقضا فالأولى مشيئة اختيار والثانية مشيئة إكراه وإجبار ، والمعنى : أن هؤلاء الكفار لا يذكرون إلا أن يجبرهم الله تعالى على ذلك وقيل : معناه إلا أن يشاء الله من حيث أمر به ونهى عن تركه ووعد الثواب على فعله وأوعد بالعقاب إن لم تفعله فكانت مشيئته سابقة أى لا تشاؤن إلا والله قد شاء ذلك (٣)

وقوله : " وما يذكرون إلا أن يشاء الله " أسلوبُ قصر من قبيل قصر الصفة وهو التذكُّر على موصوف وهو مشيئته تعالى طريقه النفى والاستثناء قصراً إضافياً قصر قلب للردِّ عليهم فى عدم إيتاء كلٍّ واحد منهم كتاباً يخصُّه ومعلوم أن " ما وإلاَّ " لا تقال إلا فى الشئ الذى يجهله المخاطب وينكره ،أو من هو منزَّل منزلة المنكر أو الجاهل . فهؤلاء يجهلون ان الله تعالى يعطى كلَّ واحد كتاباً يعلن براءته من العقاب أو نحو ذلك وينكرون أن الأمر أبعد من ذلك كله إذ الكون لا يسير حسب هواهم ومعتقدهم .

---

(١) الكشاف ١٨٨/٤ ، البحر المحيط ٣٨١/٨ .

(٢) روح المعانى ١٣٥/٢٠ ، حاشية الجمل ٤٥٤/٤ ، حاشية الشهاب ٢٨٠/٨ ، حاشية الشيخ زاده ٥٨٠/٤ .

(٣) مجمع البيان ١١٩/٢٩ .

وقرأ نافع ويعقوب " وما تذكرون " بالتاء على الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ، والمعنى : أنهم يغلب عليهم الاستمرار على عدم الـــذكرى بهـــذه التذكرة إلا أن يشاء الله التوفيق لهم ويلطف بهم فيخلق انقلاباً فى سجيَّة مَـــنْ يشاء توفيقه واللطف به ، وقد شاء ذلك فيمن آمنوا قبل نزول هذه الآية ومن آمنوا بعد نزولها ، وقرأ الجمهور " يشاؤن " بياء الغيبة مسايرة لقوله " فَمَنْ شاء ذكره " .

يقول الشيخ الطاهر ابن عاشور : " فعلمنا أن للناس مشيئة هى مناط التكاليف الشرعية والجزاء فى الدنيا والآخرة وهى المعبَّرُ عنها عنـــد أهـــل التحقيق من المتكلمين بالكسب ، وعند المعتزلة بالقـــدرة الحادثـــة ، وهمـــا عبارتان متقاربتان ، وأن لله تعالى المشيئة العظمى التى لا يمانعها مانع ولا يقسرها قاسر ، فإذا لم يتوجَّه تعلُّقها إلى إرادة أحد عباده لم يحصل له مراد ، وهذه المشيئة هى المعبَّر عنها بالتوفيق (١) .

وقوله : " هو أهل التقوى وأهل المغفرة " جملة واقعة موقع التعليـــل لمضمون جملة " فمن شاء ذكره " تقوية للتعريض بالترغيب فـــى التـــذكر ، والتذكُّر يفضى إلى التقوى . إذ المعنى : عليكم بالتذكُّر واتقوا الله تعالى لأن الله هو أهل للتقوى ، والتعريف فى " هو أهل التقوى " يفيد قصر مســـتحقٍّ اتقاء العباد إياه على الله تعالى ، وأن غيره لا يستحقُّ أن يتَّقـــى ، ويتجنَّـــب غضبه كما قال سبحانه : " وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ " (٢) . فإما أن يكون القصر فى الآية قصراً إضافياً للردِّ على المشركين الذين يخشون غضب الأصـــنام ويطلبون رضاها ، أو يكون قصراً ادعائياً لتخصيصه تعالى بالتقوى الكاملة

---

(١) التحرير والتنوير ٣٣٣/٢٠.

(٢) الأحزاب /٣٧ .

الحقّ وإلا فإن بعض التقوى مأمور بها كتقوى حقوق ذوى الأرحام كما قال تعالى : " وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ " (١) ، وقد يقال : إنّ ما ورد الأمر به من التقوى فى الشريعة راجع إلى تقوى الله ؟، وهذا من متممّات القصر الادعائىّ ، والمراد بـ " أهل التقوى " هو الحقيقُ بأن يتّقى عذابه ويؤمن به ويطاع . فالتقوى مصدرٌ مبنىٌّ للمفعول أى المتّقى (٢) .

فأهل الشئ هو الخليق به والمستحقُّ له ، وتعريف المسند إليه " أهل " بالضمير " هو " لتقدُّم ما يدلُّ على هذا الضمير صراحة فى قوله : " وما يشاءون إلا أن يشاء الله " ، وأصل الأهل من يلازم الإنسان ويخصُّه من قرابة وزواج ومنه أهل الرجل لمن يجمعهم معه نسب وقرابة أو بيت ومعيشة .

وقوله : " وأهل المغفرة " معطوف على نظيره " هو أهل التّقوى " وحذف الضمير منها استغناءً بذكره فى جزء الجملة الأول ، وحتى لا يكون فى ذكره عبثٌ وتطويلٌ يخلُّ بمغزى الكلام وفحواه ، ومعنى كونه " أهل المغفرة " أن المغفرة من خصائصه وأنه خليقٌ بها وتحقيق بأن يغفر لفرط رحمته وسعة كرمه سبحانه ومزيد إحسانه وسابغ نعمته على عباده إذا آمنوا به وأطاعوه ، وفى هذا تعريضٌ بالتحريض للمشركين أن يقلعوا عن كفرهم بأن الله يغفر لهم ما قدَّموه ، كما قال تعالى : " قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ "(٣) وأيضاً بالتحريض للعصاه والمذنبين أن يقلعوا عن ارتكاب الذنوب والمعاصى كما فى قوله تعالى : " قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا

---

(١) النساء /١ .

(٢) روح المعانى ١٣٥/٢٩ . التحرير والتنوير ٣٣٤/٢٩ .

(٣) الأنفال /٣٨ .

عَلَى أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّـــهُ هُـــوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ "(١) ، وأعُيِدَتْ كلمةُ " أهل " فى قوله : " وأهل المغفرة " دون أن يقال : والمغفرة للإشارة إلى اختلاف المعنى بين " أهل " الأول ، و " أهل " الثانى كما أُعِيد فعلُ " أطيعوا " فى قوله تعالى : " يَا أَيُّهَـــا الَّـــذِينَ آمَنُـــواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ " (٢) ، وذلك أن قوله تعالى : " أطيعـــوا الله " إشارة إلى كتاب الله تعالى ، وقوله : " وأطيعوا الرسول " إشارة إلى ســـنته – ﷺ – فى أقواله وأفعاله وسلوكه ومنهجه .

وقفة مع حديث " هو أهل التقوى وأهل المغفرة " :

أخرج ابن ماجة والترمذى والدارمى والحاكم عن سهيل القطعىّ عن ثابت البنانى عن أنس بن مالك – ﷺ – : " أن رسول الله – ﷺ – قرأ هـــذه الآية – هو أهل التقوى وأهل المغفرة – فقال : قال ربُكم : أنا أهلُ أن أُتَّقى فلا يجعل معى إله . فمن اتقانى فلم يجعل معى إلهاً ، فأنا أهـــل أن أغفـــر له(٣) ، وقال الترمذى : حديث ضعيف لأن سهيل القطعـــىّ راوى الحـــديث ليس بالقوىّ فى الحديث وقد انفرد به عن ثابت (٤) ، وقد رمز لـــه الحـــاكم بالصحة فقال : " هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرّجاه – أى الشيخان–(٥).

---

(١) الزمر /٥٣ .

(٢) النساء /٥٩ ، التحرير والتنوير ٣٣٥/٢٩ .

(٣) سنن ابن ماجة ٥١٦/٤ ك الزهد ح رقم ٤٢٩٩ ، عارضـــة الأحـــوذى ٢٨٨/١٢ ، ٢٢٩ ح رقم ٣٣٤٠ ك تفسير القرآن ، ســـنن الـــدارمى ٣٠٣/٢ ، والمســـتدرك ٥٠٨/٢ ك التفسير .

(٤) عارضة الأحوذى ٢٢٨/١٢ ، ٢٢٩ .

(٥) المستدرك ٥٠٨/٢ .

قال الألوسي: "وكأن الجملة – هو أهل التقوى وأهل المغفـــرة – لتحقيق الترهيب والترغيب اللذين أشعر بهما الكلام السابق كما لا يخفى على المتذكرٌ ، وعن بعضهم أنه لما سمع قوله تعالى – هو أهل التقـــوى وأهـــل المغفرة – قال اللهم اجعلنى من أهل التقوى وأهل المغفرة ، وعلـــى أن أول الثانى كثانى الأول مبنياً للفاعل وثانى الثانى كأول الأول مبنياً للمفعول وإلا فلا يحسن الدعاء وإن تُكُلِّف لتصحيحه (١) .

يقول المرحوم سيد قطـــب : "والله – هو أهل التقوى – يستحقُّها من عبادة فهم مطالبون بها ، و – أهل المغفرة – يتفضَّل بها على عبادة وفـــق مشيئته ، والتقوى تستأهل المغفرة ، والله – سبحانه – أهل لهما جميعاً ، بهذه التسبيحة الخاشعة تختم السورة ، وفى النفس منها تطلُّعُ إلى وجه الله الكريم ، أن يشاء بالتوفيق إلى الذكر ، والتوجيه إلى التقوى ، والفضل بالمغفرة – هو أهل التقوى وأهل المغفرة – (٢) ، ، والحمد لله الذى بنعمته تتمُّ الصالحات – والصلاة والسلام على أفصح الخلق بياناً ، وعلى آله وصحبه وسلَّم تســـليماً كثيراً . غرَّة ربيع الآخر ١٤٢٦ هـــ .

---

(١) روح المعانى ١٣٥/٢٩ .
(٢) فى ظلال القرآن ٣٧٦٤/٢٩ .

الخاتمة

" الخاتمة "

بعد هذه الرحلة فى خلال سورة " المـدثِّر " - ﷺ - والتـى جـاءت دراستها متمثلة فى مقدمة وتمهيد مشتمل على تسمية السورة ، وهل السورة كلها مكية ؟ فحكى قومُ الإجماعَ على مكيِّتها ، ورأى بعضهم عدَّ قوله تعالى عن حزنة جهنم " وما جعلنا عِدَّتهم إلاَّ فتنة للذين كفروا " .

فقد نزل بالمدينة ، وأن هذه السورة ليست أول ما نزل من القرآن بـل أول ما نزل سورة العلق مع ذكر الدليل على ذلك . مع بيان صـلة سـورة المدثِّر بقرينتها سورة المزمِّل ، والأغراض التى احتوتها سورة المدثَّر وهى كثيرة مذكورة فى مظانِّها من البحث وبعد ذلك جاءت الدراسة البلاغية فـى أربعة مباحث :

المبحث الأول : جاء فيه الحديث عن الرسول - ﷺ - من حيث صفته، والأوامر التى أمره الله تعالى بها ، وهى القيام بالإنذار وتبليغ دعوتـه إلـى الناس ، وتنزيه الله تعالى وتقديسه ، وتطهير ثيابـه أو بدنـه بالإيمـان أو بالتطهير الحقيقىّ ، وهجر الأوثان والبعد عن عبادة الأصنام والتقرُّب إليهـا كما هى عادة العرب يومئذ ، مع عدم المنِّ بالعطية طلباً للكثرة ، وأن يكون صبره لله تعالى .

المبحث الثانى : وهو حديث عن يوم القيامة ونفخ إسرافيل فى الصُّور وشدَة هذا اليوم وطوله وفظاعته على الكافرين ، ثم الحديث عـن الشـقى الوليد بن المغيرة مثال التكبُّر والعظمة القرشية أنذالك ، وتهديده بالعـذاب ، فهذا الرجل نَمَامَاً لُه وكثر ولده حتى ظنَّ أن الدنيا مخلوقة له هو مصـنوعة مهيئَة لذاته فاجتمع له المال والجاه والولد الذين لا يفارقونه فى حلِّه وترحاله لاستغنائهم عن العمل إذ لا حاجة لهم فى ذلك وبساطة العيش ورغد النعمـة

وترف الحياة الذى كان وولده ينعمون به وطمعه فى الزيادة ، وبيان موقفه من القرآن ورسول الله – ﷺ – ورميه له بالسحر الذى توارثه من أهل بابل وغيرهم من وجهة نظر فاسد ، أو كونه قول بشر لا يستحقُّ أن يسُمَّى معجزة .

المبحث الثالث : : جاء بياناً تفصيلياً لجهنم أو سقر التى أعدَّها الله تعالى للوليد ومَنْ هو على شاكلته ، وأنها تهلك اللحم وتبير العظم ولا تبقى على شئ وأن لها خزنة لا يعلم عددهم إلا الله تعالى ، وأن عدَّتهم المذكورة فى السورة ما هى إلا اختبار للذين كفروا يفتنهم الله به ، وليستبين المؤمنون من غيرهم ويزداد إيماناً مع إيمانهم ، وليبنى الله بناءً فاصلاً بين الضَّال والمهتدى ، وأن ملائكة الله تعالى لا يحيط بعلمهم إلاَّ هو ، ثم قَسَمه تعالى ببعض مخلوقاته على أن جهنم إحدى الدواهى العظام والبلايا الجسام .

المبحث الرابع : وهو محاورة المؤمنين الموحِّدين فى الآخرة مع المجرمين الذين ماتوا على ضلالهم وإجرامهم ، وأن كلَّ نفس مرهونة بعملها مع اعتراف هؤلاء المجرمين بأسباب إلقائهم فى سقر وهى عدم الصلاة وعدم إعطاء المساكين حقَّهم ، وتكذيبهم وفساد أحوالهم مع مفاجأة هؤلاء بالقيامة وأهوالها فلا شفاعة ولا قرابة ، وسببُ هذا كلِّه نفورُهم من الدعوة والداعى كما تنفر حمير الوحش من شَرَكِ صائدها أو الأسد ، وهؤلاء قطعت علائقهم بالآخرة فلا تخطر لهم على بال ولا تذكُّر فينفعهم ثم تختم السورة ببيان أن الله تعالى أهلُ لأن يتَّقى وأهلُ لأن يغفر .

وبعد : فهذا جهد المستطاع فإن كان ثَمَّ توفيقُ فهو من الله تعالى " وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب " وإن كان ثَمَّ تقصيرُ فمن نفسى والشيطان وحسبى أنى اجتهدت والصلاة والسلام علىٰ معلِّم الناس الخير .

والله غفور رحيم .

"ثبت المراجع "

القرآن الكريم .

١- الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى . ط دار المعرفة بيروت .

٢- الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية فى القرآن د / صباح دراز ط الأمانة مصر ط أولى سنة ١٤٠٦ هـ ، سنة ١٩٨٦م .

٣- أسباب النزول للواحدى نشر مكتبة أسامة الإسلامية القاهرة .

٤- أسرار البلاغة ت الشيخ رشيد رضا ط صبيح القاهرة ط سادسة سنة ١٣٧٩ هـ ، سنة ١٩٥٩م .

٥- الإشارات والتنبيهات فى علم البلاغة للجرجانى ت د عبد القادر حسين ط نهضة مصر سنة ١٩٨١ م.

٦- الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر العسقلانى ط دار الكتب العلمية بيروت .

٧- أضواء البيان فى إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطى ط عالم الكتب بيروت .

٨- الأطوال على التلخيص للعصام ط المطبعة السلطانية تركيا سنة ١٢٨٤هـ .

٩- إعراب القرآن وبيانه محيى الدين الدرويش ط دار الإرشاد سوريا سنة ١٤١٧هـ ، سنة ١٩٩٦م .

١٠- إملاء ما مَّن به الرحمن لأبى البقاء ط دار الكتب العلمية بيروت ط أولى سنة ١٣٩٩هـ ، سنة ١٩٧٩م .

١١- الإنصاف فيما تضمَّنه الكشَّاف من الاعتـــزال لابـــن المنيَّـــر ط دار المعرفة بيروت .

١٢- الإيضاح فى علوم البلاغة للخطيـــب ت د خفـــاجى ط دار الجيـــل بيروت ط ثالثة سنة ١٤١٤ هـــ ، سنة ١٩٩٣ م .

١٣- البحر المحيط لأبى حيَّان الأندلسى ط دار إحيـــاء التـــراث العربـــى بيروت ط ثانية سنة ١٤١١هـــ ، سنة ١٩٩١ م.

١٤- بدائع الفوائد لابن قيم الجوزية ط دار الفكر بيروت .

١٥- بديع القرآن لابن أبى الإصبع المصرى ت د حفنى شرف ط نهضة مصر سنة ١٩٥٧ م.

١٦- البديع فى ضوء أساليب القرآن د عبد الفتاح لاشين ط دار المعارف مصر ط أولى سنة ١٩٧٩م .

١٧- البرهان فى علوم القرآن للزركشى ت الأستاذ محمد أبو الفضـــل ط دار الفكر بيروت ط ثالثة سنة ١٤٠٠هـــ ، سنة ١٩٨٠م .

١٨- بغية الإيضاح الشيخ عبد المتعال الصعيدى مطبعة الآداب " المطبعة النموذجية " ط سابعة .

١٩- البيان فى غريب إعراب القرآن لأبى البركات الأنبارى ت د طه عبد الحميد الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٤٠٠هـــ ، سنة ١٩٨١ م .

٢٠- البلاغة فنونها وأفنانها " علم المعانى " د فضل عباس ط دار الفرقان للنشر عمان ط خامسة سنة ١٤١٨هـــ ، سنة ١٩٩٨ م .

٢١- البلاغة فنونها وأفنانها " علم البيان والبديع " د فضل عبـــاس ط دار الفرقان للنشر عمَّان ط سابعة سنة ١٤٢١ هـــ ، سنة ٢٠٠٠م.

٢٢- البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى د محمد أبو موسى نشر مكتبة وهبه القاهرة ط ثانية سنة ١٤٠٨ هـ ، سنة ١٩٩٨م .

٢٣- البلاغة المختارة من الإتقان ومعترك الأقران د السيد الجميلى ط دار عالم المعرفة مصر سنة ١٤١٣ هـ ، سنة ١٩٩٣ م .

٢٤- التبيان فى علم البيان للطيبى ت د هادى عطية ط عالم الكتب بيروت ط أولى سنة ١٤٠٧ هـ ، سنة ١٩٨٧ م.

٢٥- التحرير والتنوير فى التفسير الشيخ الطاهر ابن عاشور نشر الدار التونسية تونس سنة ١٩٨٤م.

٢٦- التسهيل فى النحو لابن مالك ت محمد كامل بركات ط دار الكتاب العربى القاهرة سنة ١٣٨٧ هـ ، سنة ١٩٦٧م .

٢٧- التسهيل لعلوم التنزيل ابن جزى الكلبى ط دار الكتاب العربى بيروت ط رابعة سنة ١٤٠٣ هـ ، سنة ١٩٨٣ م.

٢٨- تفسير القرآن العظيم ابن كثير ط دار التراث العربى القاهرة .

٢٩- تفسير أبى السعود " إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم " ط دار إحياء التراث العربى بيروت .

٣٠- تفسير البيضاوى " أنوار التنزيل وأسرار التأويل " ت د حمزة النشرتى ، عبد الحفيظ فرغلى ط المكتبة القيمة القاهرة سنة ١٤١٨هـ.

٣١- تفسير روح البيان إسماعيل حفى البروسوى ط إحياء التراث العربى بيروت ط سابعة سنة ١٤٠٥هـ ، سنة ١٩٨٥ م.

٣٢- التفسير البلاغى للاستفهام فى القرآن الحكيم د عبد العظيم المطعنى نشر مكتبة وهبة ط أولى سنة ١٤٢٠ هـ ، سنة ١٩٩٩م.

٣٣- تفسير جزء تبارك الشيخ عبد القادر المغربى ط دار الشعب القاهرة سنة١٩٥٧م.

٣٤- تفسير الخازن " لباب التأويل فى معانى التنزيل " وبهامشه البغوى ط دار الفكر بيروت سنة ١٣٩٩ هـ ، سنة ١٩٧٩م .

٣٥- تفسير السمر قندى المسمَّى " بحر العلوم " ت الشيخ على معوض ، د زكريا النوتى ط دار الكتب العلمية بيروت ط أولى ١٤١٣هـ ، سنة ١٩٩٣ م.

٣٦- تفسير القاسمى " محاسن التأويل " ت محمد فؤاد عبد الباقى مؤسسة التاريخ اللعربى بيروت ط سنة ١٤١٥هـ ، سنة ١٩٩٤ م .

٣٧- التفسير الكبير " مفاتيح الغيب " الرازى ط دار الفكر بيروت سنة ١٤١٥هـ ، سنة ١٩٩٥ م.

٣٨- تفسير المراغى . تخريج باسل عيون السود ط دار الكتب العلمية بيروت ط أولى سنة ١٤١٨هـ ، سنة ١٩٩٨ م .

٣٩- تفسير النسفى " مدارك التنزيل وحقائق التأويل " عناية عبد المجيد جلبى ط دار المعرفة بيروت ط أولى سنة ١٤٢١هـ ، سنة ٢٠٠٠م.

٤٠- التلخيص الذهبى مع المستدرك على الصحيحين ط دار المعرفة بيروت .

٤١- تنزيل الشواهد على الكشاف محبُّ الدين أفندى ط دار المعرفة بيروت .

٤٢- جامع البيان الطبرى ط البابى الحلبى ط ثانية ، ط دار المعرفة بيروت سنة ١٤٠٣ هـ ، سنة ١٩٨٣ م.

٤٣- الجامع لأحكام القرآن القرطبى ت عبد الرزّاق المهدى ط دار الكتاب العربى بيروت ط أولى سنة ١٤١٨هـ ، سنة ١٩٩٧ م .

٤٤- جواهر البلاغة للهاشمى ت د يوسف الصميلى ط المكتبة العصرية بيروت ط أولى سنة ١٤٢٠هـ ، سنة ١٩٩٩م .

٤٥- حاشية الجمل " الفتوحات الإلهية " سليمان بن عمر العجيلى الشهير بالجمل ط المكتبة التجارية الكبرى سنة ١٣٧٧هـ .

٤٦- حاشية الدسوقى ضمن شروح التلخيص مطبعة السعادة مصر ط ثانية سنة ١٣٤٢هـ .

٤٧- حاشية السيد الشريف على الكشاف ط دار المعرفة بيروت .

٤٨- حاشية الشيخ زاده على البيضاوى نشر المكتبة الإسلامية تركيا .

٤٩- حاشية الشهاب " عناية القاضى وكفاية الراضى " على البيضاوى المكتبة الإسلامية تركيا .

٥٠- حاشية الصاوى على تفسير الجلالين ت الشيخ محمد على الضيّاع ط دار الجيل بيروت .

٥١- خصائص التراكيب د محمد أبو موسى نشر مكتبة وهبة ط ثانية سنة ١٤٠٠هـ ، سنة ١٩٨٠م.

٥٢- دراسات فى علم المعانى د حسن مخيمر ط الأمانة القاهرة ط أولى سنة ١٤٠٩هـ ، سنة ١٩٨٩م.

٥٣- دراسات منهجية فى علم البديع د الشّحات أبو ستيت ط دار خفاجى للطبع قليوب ط أولى سنة ١٤١٤ هـ ، سنة ١٩٩٤م.

٥٤- الدُر المصون فى علوم الكتاب المكنون السمين الحلبى ت على معوض ، د زكريا النوتى ، د جاد مخلوف على ط دار الكتب العلمية بيروت ط أولى سنة ١٤١٤ هـ ، سنة١٩٩٤ م .

٥٥- ديوان أبى الطيب المتنبى ش نصيف اليازجى ط دار صادر بيروت

٥٦- ديوان الحارث بن حِلِّزة ت طلال حرب ط دار صادر بيروت ط أولى سنة ١٩٩٦ م.

٥٧- ديوان الحماسة ش التبريزى ط دار القلم بيروت ، ش المرزوقى ط دار الجيل بيروت ط أولى سنة ١٤١١ هـ ، سنة ١٩٩١ م.

٥٨- ديوان الشمَّاخ بن ضرارت صلاح الدين الهادى ط دار المعارف القاهرة سنة ١٣٨٨ هـ ، سنة ١٩٦٨ م .

٥٩- ديوان طرفة بن العبد ت فوزى عطوى ط دار صعب بيروت سنة ١٩٨٠م .

٦٠- ديوان عنترة بن شدَّاد ط دار صادر بيروت .

٦١- ديوان لبيد بن ربيعة ط دار صادر بيروت .

٦٢- ديوان امرئ القيس ت الأستاذ محمد أبى الفضل ط دار المعارف القاهرة سنة ١٣٧٧ هـ ، سنة ١٩٥٨ م .

٦٣- ديوان النابغة الذبيانى ط الشركة التونسية تونس سنة ١٩٨٦ م.

٦٤- دلائل الإعجاز ت الشيخ محمود شاكر ط المدنى القاهرة وجدة ط ثالثة سنة ١٤١٣ هـ ، سنة ١٩٩٢ م .

٦٥- روح المعانى فى تفسير القرآن والسبع المثانى الألوسى ط دار إحياء التراث العربى بيروت ط ٤ سنة ١٤٠٥ هـ ، سنة ١٩٨٥ م.

٦٦- زاد المسير فى علم التفسير ابن الجوزى ت أحمد شمس الدين ط دار الكتب العلمية بيروت ط أولى سنة ١٤١٤ هـ ، سنة ١٩٩٤ م .

٦٧- سنن ابن ماجة ت الشيخ خليل شيحا ط دار المعرفة بيروت ط أولى سنة ١٤١٦ه ـ ، سنة ١٩٩٦ م .

٦٨- سنن أبى داود ت الشيخ مَحمد محى الدين المكتبة العصرية بيروت .

٦٩- سنن الدارمى ط دار الكتب العلمية بيروت .

٧٠- شرح ابن عقيل ت الشيخ محمد محى الدين المكتبة العصرية بيروت سنة ١٤١٨ هـ ، سنة ١٩٩٧ م .

٧١- شرح التصريح على التوضيح الشيخ خالد الأزهرى ط دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبى القاهرة .

٧٢- شرح القصائد العشر التبريزى ط دار الكتب العلمية بيروت ط ثانية سنة ١٤٠٧ هـ ، سنة ١٩٨٧ م ضبط الأستاذ عبد السلام الحوفى .

٧٣- الصاحبى فى فقه اللغة لابن فارس ت السيد صقر ط عيسى البابى الحلبى القاهرة سنة ١٩٩٧ م .

٧٤- صحيح البخارى تعليق د مصطفى ديب البغاط دار القلم بيروت .

٧٥- صحيح مسلم ت محمد فؤاد عبد الباقى ط دار إحياء الكتب العربية "عيسى البابى الحلبى" .

٧٦- صفوة التفاسير الشيخ الصابونى ط دار الرشيد سوريا .

٧٧- الصناعين ت د مفيد قميحة ط دار الكتب العلمية بيروت ط ثانية سنة ١٤٠٤ هـ ، سنة ١٩٨٤ م .

٧٨- الطراز المتضمّن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز العلـــوى ط دار الكتب العلمية بيروت سنة ١٤٠٢ هـــ ، سنة ١٩٨٣ م .

٧٩- عارضة الأحوذى بشرح صحيح الترمذى لابن العربـــى ت الشـــيخ هشام البخارى ط دار إحياء التراث العربى بيروت ط أولى سنة ١٤١٥ هـــ ، سنة ١٩٩٥ م.

٨٠- غرائب القرآن فى رغائب الفرقان النيسابورى ط دار الصفوة القاهرة ط أولى سن ١٤١٦ هـــ ، سنة ١٩٩٥ م .

٨١- فتح البارى بشرح صحيح البخارى ت محمد فؤاد عبد الباقى ، محب الدين الخطيب ط دار الريَّان للتراث القاهرة ط أولى سنة ١٤٠٧ هـــ، سنة ١٩٨٦ م .

٨٢- فتح القدير فى التفسير الشوكانى ت يوسف الغوش ط دار المعرفـــة بيروت ط ثانية سنة ١٤١٦ هـــ ، سنة ١٩٩٦ م.

٨٣- الفصل والوصل فى القرآن د منير سلطان ط دار المعارف القـــاهرة سنة ١٩٨٣ م .

٨٤- الفوائد المشوق إلى علوم القرآن ابن قيم الجوزيـــة مكتبـــة المتنبـــىً القاهرة .

٨٥- فى ظلال القرآن الشهيد سيد قطب ط دار الشروق القاهرة ط خامـــة عشر سنة ١٤٠٨ هـــ ، سنة ١٩٨٩ م.

٨٦- القراءات العشر المتواترة على هامش القرآن الكريم ت الشيخ محمد كريِّم راجح نشر دار المهاجر للنشر والتوزيع السعودية ط ثانية ســـنة ١٤١٤ هـــ ، سنة١٩٩٤ م .

٨٧- الكامل فى اللغة والأدب المبرد ط مؤسسة المعارف بيروت سنة ١٤٠٥ هـ ، سنة ١٩٨٥ م .

٨٨- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل الزمخشرى ط دار المعرفة بيروت .

٨٩- كلاَّ ومقاماتها القرآنية بحَث منشور د رفعت السودانى مجلة كلية اللغة العربية إيتاى البارود بحيرة العدد التاسع سنة ١٤١٣ هـ ، سنة ١٩٩٢ م .

٩٠- لطائف الإشارات فى التفسير القشيرى ت د إبراهيم بسيونى مركز تحقيق التراث الهيئة المصرية العامة للكتاب ط ثانية سنة ١٩٨٣ م .

٩١- مباحث فى وجوه تحسين الكلام د رفعت السودانى ط الأمانة القاهرة ط أولى سنة ١٤١١ هـ ، سنة ١٩٩١ م .

٩٢- المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر ابن الأثير ت الشيخ محمد محى الدين ط المكتبة العصرية بيروت سنة ١٤١١هـ ، سنة ١٩٩٠م.

٩٣- مجمع البيان فى تفسير القرآن الطبرسى منشورات دار مكتبة الحياة بيروت .

٩٤- المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ت عبد السلام عبد الشافى ط دار الكتب العلمية بيروت ط أولى سنة ١٤١٣ هـ ، سنة ١٩٩٣ م .

٩٥- المزهر فى علوم اللغة السيوطى ت محمد أحمد جاد المولى ، محمد أبى الفضل ، على البخارى ط دار الجيل ، دار الفكر بيروت .

٩٦- المستدرك على الصحيحين أبو عبد الله الحاكم ت د يوسف المرعشلى ط دار المعرفة بيروت .

٩٧- مسند الإمام أحمد بن حنبل ط دار صادر بيروت .

٩٨- معاهد التنصيص العباسى ت الشيخ محمد محى الدين ط عالم الكتب بيروت سنة ١٣٦٧هـ ، سنة ١٩٤٧ م .

٩٩- مغنى اللبيب لابن هشام ط دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبى .

١٠٠- مفتاح العلوم السكاكى ط مصطفى البابى الحلبى مصر ط أولى سنة ١٣٥٦ هـ ، سنة ١٩٣٧ م .

١٠١- المفردات فى غريب القرآن للراغب ط شركة الإعلانات الشرقية القاهرة سنة ١٩٩١ م ، ط دار المعرفة بيروت ت محمد سيد كيلانى.

١٠٢- مقدمة نفسير ابن النقيب ت د زكريا سعيد على نشر مكتبة الخانجى القاهرة ط أولى سنة ١٤١٥ هـ ، سنة ١٩٩٥ م .

١٠٣- من بلاغة النظم القرآنى فى أساليب السؤال والجواب د احمد ناجى ط دار الأزهر ط أولى سنة ٢٠٠١ م .

١٠٤- الموطأ للإمام مالك ت فاروق سعد ط دار الآفاق الحديثة بيروت، ط دار الرشاد الحديثة المغرب ط ثالثة سنة ١٤٠٥ هـ ، سنة ١٩٨٥ م.

١٠٥- مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربى ضمن شروح التلخيص ط السعادة مصر ط ثانية سنة ١٣٤٢ هـ .

١٠٦- نظرات فى البيان د٠محمد عبد الرحمن الكردى ط السعادة مصر سنة ١٤٠٠ هـ ، سنة ١٩٨٠ م .

١٠٧- نظم الدرر فى تناسب الآيات والسُّور البقاعى ت عبد الرزَّاق المهدى ط دار الكتب العلمية بيروت ط أولى سنة ١٤١٥ هـ ، سنة ١٩٩٥م.

١٠٨- النظم القرآنى فى سورة المعارج دراسة تحليلية د أحمد ناجى ط التركى مصر ط أولى سنة ١٩٩٨ م .

١٠٩- نقد الشعر قدامة بن جعفر ت د خفاجى نشر مكتبة الكليات الأزهرية ط أولى سنة ١٣٩٨ هـ ، سنة ١٩٧٨ م .

١١٠- النكت فى إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل " الرُّمانى" ت د محمد زغلول سلاَّم ط دار المعارف مصر ط رابعة سنة ١٩٩١م.

١١١- نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز الرازى ت د إبراهيم السامرائى، د محمد بركات أبى على ط دار الفكر للنشر والتوزيع عمان سنة ١٩٨٥م.

فهرس الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة
المقدمة	٣-٤
التمهيد	٥-١٠
المبحث الأول الحديث عن رسول الله - ﷺ - .	١٣-٥٢
المبحث الثانى الحديث عن الشقى الفاجر الوليد بن المغيرة	٥٥-٨٤
المبحث الثالث وصف سقر وبيان عدد خزنة جهنم	٨٧-١٢٩
المبحث الرابع الحوار بين المؤمنين والمجرمين فى الآخرة	١٣٣-١٦٦
الخاتمة	١٦٩
فهرس المراجع	١٧١
فهرس الموضوعات	١٨٢